محمد راشد

موت الشيطان

رواية

obeikan.com

الكتـــــــاب: موت الشيطان

المـــؤلـــــف: محمد راشد

تصميم الغـــلاف: إسلام مجاهد

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيـــداع: 2016 / 26447

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 137 - 3

الإخـراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0227931911 - موبايل: 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

محمد راشد

موت الشيطان

رواية

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى شيطان كان يومًا إله الشر، ثم بات عاطلًا عن العمل، بعد أن فاق شر الإنسان كل شروره.

إلى روح شيطان مات كمدًا بعد أن قتله البشر بعِظَمِ شرهم، وجعلوه عاطلًا فمات محسورًا.

إلى الشيطان الذي بقي حيًا بعد أن ماتت كل الشياطين ليقدم لي يد العون... صديقي طه مجدي

إلى الطبيبة العظيمة دكتورة إيمان الدواخلي

إلى أصدقائي الأعزاء؛ من كانوا دعمًا لي بطريقة مباشرة وغير مباشرة، إلى أحمد بدران ومحمود مصطفى وهبه الحفناوي وأميمة ماهر ومنار علاء ومروة أحمد ومنال عبد الحميد وياسمين الشافعي ونورهان زغلول، ونهاد شيبة...

obeikan.com

إلى ساندرا

إلى أصدقاء الطفولة والمراهقة والشباب، وما بقي من العمر، إلى ياسر صلاح، ورضا خلف، ومحمد حلمي، ومحمود السيد، وعلاء جابر، ووليد جلال، وعمر عبد الجواد.. إلى روح فقيدنا أسامة.

وقبل الجميع إلى أخوتي، الكبرى والوسطى والصغرى والخالة، إلى طارق.

أهديكم جميعًا... شيطاني الذي بقي حيًا بعد أن ماتت كل الشياطين.

obeikan.com

نكتب حتى نحطم تلك الخرافات التي في عقولكم والتي أنهكت حياتنا ودمرت بلداننا، نكتب حتى تعودوا إلى رشدكم. سنكتب ولن نتوقف حتى يعيش الجميع بسلام وحب....وحرية

عمر محمد باطويل

شهيد الكلمة اليمني

obeikan.com

obeikan.com

(١)

بزغ الصباح، فاجتمع حاكمو قبائل الشياطين ليحضروا اجتماعه الشهري، الذي يسرد فيه كل قائد ما ظفر به جنوده. في قاعة العرش انتظروا حلول المساء، وحضور أبيهم الأكبر " إبليس.

جلس إبليس على عرشه يعتلي الجميع، وبأسفله بركة عظيمة من الماء تتوسط أولى الدوائر؛ وفي دوائر خلف بعضها البعض، اصطف الرعية في خشوع مطرقين رؤوسهم، حتى أُذن لهم بالبدء. تقدم كبير الشياطين الجنوبيين، ليجلس في مقعد الحكَّاء، وقال ما قال.....

(٢)

كنت يا مولاي إبليس المعظم أسكن في أحدى مناطق الصحراء في جنوب مصر؛ منفيًا بعد أن صدر الحُكم عليّ من مجلس قيادة الشياطين، بعد فشلي الذريع في توقيع الفتنة بين أهل المدينة التي كنت قد كُلفت بها من قبل قداسة المجلس الأعلى، معي ثلاثة من الحرس الشخصي يلازموني ريثما تنتهي مدة عقابي التي انتهت منذ يومان.

كم هي الحياة بدون عمل مملة لا تُطاق.

لسنا كالبشر الفانيين نستطيع المُكُوث بلا عمل، كان همي القاتل هو أين أجد عملاً في منفاي هذا؟ صحراء قاحلة ليس بها سواي وحراسي والرمال، تبعد عن العمار مائة كيلو متر بشرية، فجأة في أحد الأيام وجدت رجلين قادمين يركبان ناقتين، ترجَّلا عن ناقتيهما، تلفَّتَا

بنظرهما حولهما في الخلاء، توجها ناحية بئر الماء البعيد الوحيد في المكان، قال كبيرهما حمدان لأخيه مهران:

- هذا هو المكان الأنسب لنا لننفذ ما اتفقنا عليه؛ أرضٌ فسيحة مبسوطة يحُدُوها جبلين من ثلاث اتجاهات، وسهل رمال عالٍ من الرابعة، لن نجد أفضل من هذا المكان نهرب فيه من فسادٍ حلَّ بقريتنا ومجتمعنا، من المدنية الزاحفة على صعيدنا وقريتنا.

وافقه أخيه على ما قال، واستراحا قليلاً يا مولاي، سقيا إحدى النوق من البئر ليختبرا سُميته من عدمها، ثم جلسا ما يقارب الساعة بمقاييسهما، يفترشا الرمال مسندين رأسيهما على الناقة الأخرى الرابضة، في أيديهما مسدساتهما يحذران وحوش الصحراء، بعد فترة من الوقت لم تتأثر الناقة التي شربت من الماء، ولم يظهر عليها أي إعياء، نظرا لبعضهما مبتسمين

-هيا بنا! الخيرة فيما اختاره الله .....

قال مهران وركب كل منهما ناقته.

فهمت من حديثهما أبي المبجل أنهما سيستوطنان هذه الأرض، سعدت

أيما سعادة بهذا، إنها فرصة تأتي مهرولة إليّ لأعوض ما سلف، وأكفر عن فشلي السابق، وأرفع عملي بعد أن أتمه إلى قداسة مجلس الشياطين الأعلى، لينحوا العقوبة عني قبل انتهائها، وأستعيد عرشي وسط أهلي وعشيرتي، هؤلاء القوم القادمين عاجلاً لن يفلتوا من قبضة فتنتي، أُوسوس لهم، أُوقعهم في حبائلي، أنا قائد شياطين الجنوب، ومنْ في مثل قوتي.

ارتفع صوت ضجيج غاضب في القاعة فجأة، همهمات، كلمات غير مفهومة، نظرات غضبٍ مشتعلة من جميع الشياطين، زمجرة قوية خرجت من فم الأب الأكبر....

- لا غرور في حضرتي أنا الشيطان الأعظم، إبليس آدم، من غوى أول البشر وأسس الشيّطنة، من أنت لتغتر في وجود طاووس المغرورين.....

قال إبليس غاضبا..

طأطأ قائد الجنوب رأسه في خجل ورهبة معتذرًا لإبليس، هدأ إبليس قليلاً، ثم أشار له ليكمل حكايته...

أرسلت يا مولاي واحدًا من حراسي خلف الإنسيين ليتبعهما ويعود لي بأخبارهما قبل أن يأتيا لأجهز خطتي، عرفت أنهم ثلاث أخوة يسكنون

إحدى قرى الصعيد، متشددي الفكر، متمسكين بالعادات والتقاليد، سئموا ما حل ببلدتهم من انفتاح، قرروا أن يهاجرزا إلى أحد بقاع الصحراء، يستوطنوها ويُحْيِوا فيها بما تربوّا عليه، معهم نسائهم وأولادهم، حمدان أكبرهم أصغرهم جبل يتوسطهم مهران، لكل منهم امـرأة، ولحمدان ثلاثة أولاد؛ شابين وفتاة، ولمهران شابان ولجبل مثله، قرروا جماعتهم وراحوا ينفذون، ركب الكبيران نوقهما هائمين على وجوههما في الصحاري القريبة، حتى وجدا مستقرهما، ثم عادا ليجهزا عدتهما وأهلهما، ومكثت أنا أجهز حبائلي ومكائدي.

obeikan.com

(٣)

أوكل الكبيران لجبل مهمة بيع أراضيهم وبيوتهم حين اتفقا على الهجرة، راح يبيع الأرض ويكدس الأموال في داره حتى باع الكل، أعطى مواعيد بتسليم البيوت بعد رحيلهم، أخذ كل الأموال، ووضعها في أحد البنوك وديعة باسمه يسحب أرباحها شهريا، كان الأسى يملأ الجميع حتى الكبيران وأولهما مهران صاحب الفكرة، الحنين يعصف بهم، حنين لبلدتهم، أراضيهم، حياتهم التي اعتادوها، جيرانهم، باقي عائلتهم، أولاد عمومتهم وأقاربهم الآخرين، عاشوا طيلة عمرهم هنا، جدودهم تفوح رائحتهم من كل مكان في بيوتهم، أرواحهم تحوطهم، تباركهم، تراقبهم وتعتني بهم.

حمدان يتألم أكثر من الجميع، فلقد رأى في أعوامة الخمسة والخمسين ما لم يره أخوه ذي الخمسة والثلاثين، ولا الأصغر ذي الثلاثين عامًا، لكنه يقول دائمًا إن الوطن هو المكان الذي أحيا فيه بأمان وليس الذي

وُلدت فيه، لا أمان هنا بعد الآن، فلم يعد هذا وطني، ولا تلك القرية مسكني، وافقوا على الرحيل بعد اقتراح مهران، ومحاولاته المُضنية لإقناعهم؛ وافق الرجال، النساء لا رأي لهن في عرفهم، وافقن مرغمين، وإن رفضن فلا يعول على رفضهن، ولا يوجد بأيديهن ما يفعلْنه، تابعاتٌ هنَّ لسُنَ أحرارًا.

جهزت النساء الثلاثة كل شيء، جمعن الملابس في حقائب وفي ملاءات الآسرة، أواني الطبخ تكدست في صناديق خشبية، الأثاث تكوم فوق بعضه البعض، يتشحن بالسواد ليس لكثرة الأسى والألم، ولكن للتعود، فلا نساء ترتدي الألوان؛ إلا السافرات، أو من هن دون سن البلوغ، اتفق جبل مع سائق شاحنة نقل كبيرة لينقل أمتعتهم إلى مكان انتقالهم، مستقرهم ووطنهم الجديد، أخذ النساء أولا ومعهم مهران وحمدان وابنته، مكث الشباب مع جبل منتظرين عودتها لينقلوا الأثاث على دفعات، فلم يرغب جبل في جلب أكثر من شاحنة حتى لا يعرف أحد مكانهم، وصلت السيارة إلى المكان الذي استقر عليه الكبيران من قبل، تعجب عويضة السائق ما إن طلب منه حمدان التوقف، أين يذهبون في هذه الصحراء؟ كيف سيمكثون هنا؟

-انتوا رايحين فين يا حاج حمدان؟

-ملكش صالح يا عويضة.. حط لسانك في حنَكك، وعاود لجبل هات باقي الحاجة.

ابتلع عويضة باقي أسئلته مرغمًا، خوفًا من بطشٍ عُرف عن حمدان وعائلته كلها، ركب سيارته، عاد إلى منزل القرية، راح ينقل الأثاث على دفعات بملل، فلا يعرف لمَ كل هذا، حتى تم تحميل آخر دفعة، ركب جبل وأولاد العم الصغار مودعين بنظراتهم قريتهم، وقلوبهم تعتصر ألمًا، إلا جبل هادئ الوجه، المستعر بداخله بركان حزن، ولكنه خامد لم ينفجر بعد، وصلوا إلى الصحراء، أفرغوا الشاحنة من الأثاث، وقف عويضة بجوار شاحنته، وعيناه تطلب أجرته، نظر مهران لجبل نظرة ذات مغزى كما لو كانا متفقين عليها مسبقا، ركب جبل الشاحنة مناديا عويضة..

-يلا بينا يا عويضة! هعاود معاك أروح البندر...

قطعا الصحراء، مسافة ليست بالقصيرة لكنها لم تطل كثيرًا، استلما الطريق الصحراوي، الأسفلت يمرق سريعًا أسفل العجلات، الصفار يحيط الطريق والسماء فوقهما:

obeikan.com

-وقَّف على جنب يا عويضة، مزنوق هانزل أصرف نفسي.

نزل عويضة أسفل الطريق قليلاً، توقف، نزل جبل بجسده الضخم، وطوله الفارع، مكث عويضة مكانه في مقعد السائق منتظرًا، التف جبل من خلف الشاحنة، توجه ناحية باب السائق، الزجاج مرفوع عن آخره، لا أصوات قادمة من الخارج، عويضة شارد بفكره ناظرًا تجاه السماء، أخرج جبل مسدسه، سحب أجزاءه سريعا، وجهه ناحية عويضة من خلف الزجاج، اعتصر الزناد بلا تردد، خرجت طلقة اخترقت الزجاج، استقرت في جانب رأس عويضه، مالت للخلف ثم سقطت على عجلة القيادة.

تطاير الدم، ملأ الزجاج الأمامي والجانبي، منع الرؤية، فتح جبل باب الشاحنة، الفوضى تملئ المكان، طلقة أخرى استقرت في مؤخرة رأس عويضة، أخرى في جانبه، انتفضت الجثة من أثر الطلقة الأخيرة، لكنه كان قد فارق الحياة بلا أي صوت سوى صوت الرصاص، الدماء سالت، خيط نزل من الشاحنة، استقر أرضًا.

جبل تسمر مكانه بلا حراك، اعتصر الأسى قلبه لكنه لا يهتز، الرجل الحق في نظره لا يخاف، وإن خاف لا يُظهر خوفه، أغلق باب الشاحنة،

توجه مبتعدًا عنها في عكس اتجاه سيرها:

-سامحني يا عويضة! بس مش هينفع تعرف مكاننا، إنت لسانك فالت، الله يرحمك!

التفت حوله في جميع الاتجاهات... لا أحد يراه، ذهب عائدًا من حيث أتى، حوالي مائتي متر على قدميه، صخرة كبيرة على جانب الطريق أسفل الطريق الإسفلتي، توجه إليها، جلس في ظلها ينتظر، نصف ساعة مرت، لاحت في الأفق ناقتين قادمتين من بعيد، قام من مجلسه متجهًا نحوهما، ظهر القادم واتضحت معالمه، مهران أخيه يركب أحداهما ويجر الأخرى خلفه، ما إن وصل إليهما حتى أمسك بحبل الناقة، أناخها، ركب في صمت، وجها الناقتين عائدين إلى عائلتهما.

وجوهٌ عابثة زادتها رمال التصقت بها عبوسًا، الصحراء كئيبة ممتدة، صفار في كل الاتجاهات، لونان فقط يحيطان بهما؛ اصفرار الرمال وزرقة السماء، سأمٌ لم يعتادوه، النوق تسير بطيئة في طريق حفظته، ولم تُجده بعد.

-مالك يا أخوي؟ فيك إيه يا جبل؟

-قتل إنسان، وخطف روحه من غير سبب، مش سهل يا وِلد أبوي.

-إجمد يا صغير، وتقل قلبك داخلين على أيام ما نِعرف فيها إية؟

-كله بسببك يا مهران، لولا إنك أخوي ودمي ما كنت طاوعتك أبدًا، بس إنت دمي والدم معينفعش نتبروا منِّيه.

قال وصمت، وأتبع صمته صمتًا مطبقًا من مهران، حتى النوق كأنها فهمت حديثهما فصمتت عن إصدار أصوات رغائها، وحده حفيف رمال تتطاير لتلتصق بوجوههما وتقتحم أنوفهما هو المسموع، غضب عارم يستعر في نفس جبل، خوف مظلم يطبق على روح مهران.

وَصَلَا إلى مكان إقامة العائلة، أولاد العم يتعاونون في نصْب بعض الخيام، في ظل الجبل قريبًا من بئر الماء، حمدان والنساء يُفرغون الأمتعة، حلَّ المساء، أشعل مهران بعض أغصان الأشجار اليابسة التي جمعها من أماكن متفرقة صَادَفَها في طريقه، التف الرجال حول النار، النساء أُقيدت لهم نار أخرى يُعدون عليها الطعام.

صمتٌ يغلف الجميع، كآبة بادية على الوجوه، أسًى بدء في حفر خطوطه على الملامح بتمهل، وجوه كوجوه الموتى، لا دماء فيها، النار تتراقص تُزيد المشهد بؤسًا ورهبةً، سماء مظلمة، قمر غائب لم يظهر، الخلاء واسع لا حصر له، أصوات ذئاب قادمة من بعيد، أسلحتهم بجوارهم

مجهزة لإطلاق الرصاص، أيادٍ مُتحفزة وقلوبٌ لا تخشى الموت، فليس الذي يطلق الرصاص هو السلاح بل قلب صاحبه.

obeikan.com

(٤)

قبل شهر وسبعة عشر يومًا من الهجرة

خرج الأخوة الثلاث من باب المسجد، بعد أداء صلاة العِشاء، متجهين إلى منزل الحاج عمران، معهم وهدان صديق مهران وابن أخ للحج عمران، كانوا قد أقروا موعدًا مسبقًا فيما بينهم بعد أن انتهوا من صلاة المغرب على أن يذهبوا إليه بعد صلاة العِشاء ليواسوه في ابنه المفقود.

كان علي أبن عمران في رحلة سفر للعمل منذ خمسة عشر عامًا هو وزوجته ابنة عمه ليعمل في إحدى شركات البترول بالخليج العربي، تزوج وسافر بعد زواجه بأسبوع واحد مصطحبا زبيدة زوجته معه، لم يأت في أجازة ولا مرة واحدة، حتى فاجأ أهله ذات يوم بدخوله عليهم ليسعدوا بعودته أيَّما سعادة، بعد أن أنهى عمله في تلك الشركة، وقرر

العودة ليستقر في مسقط رأسه وسط أهله منذ ثلاثة أشهر، لكن القدر أراد أن يسلب منهم فرحتهم ومنه استقراره، فبعد عودته بشهر واحد اختفى، ففي ذات يوم خرج بعد أن صلى العصر مع والده إلى القرية المجاورة لهم، ليزور أحد أصدقائه القدامى ولم يعد حتى الآن.

وصل الجمع إلى ديوان العائلة، ليجدوه ممتلئًا بجيران ومعارف جاءوا للمواساة كما جاءوا هم، وأهل مُدجَّجون بالسلاح احترازًا لأي مكروه قد يقع أو وقع لا يعرفونه بعد، لم يخرجوا للبحث عنه منذ أن اختفى منذ ثلاثة أيام، هو ليس طفلاً كما قال والده، ولكن لا يمنع ذلك القلق، كان شباب القرية يودون متحمسين أن يخرجوا للبحث عنه، لكن منعهم عدم معرفتهم له، فمنهم من وُلد ولم يره، ومنهم من رآه صغيرًا فلم ترتسم ملامحه في ذاكرته، فلم يكن هناك جدوى مرجوة من خروجهم وبحثهم.

جلس حمدان بجوار عمران فهم أكابر القرية، كبير العائلة يجالس كبيرًا مثله لا يجالس صغيرًا ولا يجالسه أقل منه، هما أكبر رأسين في القرية، بجانب الشيخ ربيع حكيم القرية من يلجأ له الجميع في حل مشاكلهم ونزاعاتهم، حاول حمدان أن يستفهم من عمران عن ما حدث

لكنه لم يكن يعرف شيئًا ليحكيه.

على الجانب الآخر زوجة علي لم تكفّ عن النحيب، ولم تكفكف دموعها يومًا منذ تلك المأساة، ذهبت لزيارتها ذات يوم حميدة زوجة جبل لتجدها كما الميتة من كثرة اصفرار وجهها بعد أن ذهب الدم منه، كانت تحب زوجها حبًّا جمًّا قد يرتقي إلى مرتبة العبادة إذ أنها عقيم لا تنجب، ورغم ذلك رفض أن يُطلقها أو يتزوج أخرى، وحرم نفسه من الأبناء لأجل حبها، فزادها هذا شغفًا به.

خرج الجميع لا يفقهون شيئًا، فلا شيء ليفقهوه، أين اختفى؟ من أخفاه؟ هل هناك يد أخرى في الحادثة؟ أم هو القدر؟ أم هو غياب طبيعي لن يلبث إلا أن يعود علي ليقول لهم إنه كان هنا أو هناك ولم يصبه مكروه، من قد يفعل له شيئًا؛ هو جديد في القرية، لا عداوة بينه وبين أحد ولا عداوة بين عائلته وأخرى، القدر يخبئ الكثير ولا يستطيع أحد أن يُجبره على البوح بما في باطنه...

الأقدار أسرارٌ بكر؛ لا يُفض غشاؤها إلا حين ظهورها.

(٥)

قبل شهر وخمسة عشر يومًا من الهجرة

دخل حمدان إلى بيته مسرعا، عبر الفسحة أمام الباب الرئيسي، دلف إلى المنزل، كانت زوجته جالسة تجهز الأرز للطبخ، لم يعرْها أيّ انتباه، غضبٌ عارمٌ يتقافز من قسمات وجهه، اتجه إلى غرفة ولده الجالس فيها، دفع الباب بعنف، فوجئ ولده، نهض من على فراشه

-فيه إيه يا بوي؟ حصل حاجة؟.....

يتجه نحوه..

لم يرد على سؤاله، أبعده بيُمناه عن طريقه، اتجه إلى سريره، رفع الوسادة، ألقاها بعيدا، رفع الملاءة نظر أسفلها.. لاشيء، ألقاها بدورها، رفع كل ما فوق السرير حتى ظهرت ألواحه الخشبية، توقف مذهولا بلا حراك لثانيتين، مد يده، أمسك مجلة ورقية، نظر إلى ولده بوجه مشتعل احمرارًا من فعل الغضب:

obeikan.com

-صور قبيحة يا ابن الكلب، بتتفرج على حريم عريانة يا وسخ يا قليل الحيا!

نظرة ذهولٍ غزت وجه عابد ولده، لم يستطع النطق، صُدم مما رأى، نظرات حائرة بين يد والده فيها المجلة وبين وجهه، إشارات غير ذات معنى من يده، تلعثم كلامي غير واضح الحروف، تراجع متوترًا ببطء أمام قطار غضب والده القادم نحوه، التصق بباب غرفته المفتوح، دفعه والده دفعة قوية ألقته أرضًا:

-واللّه يا بوي ما اعرف حاجة عنها واللّه ما اعرف يا بوي..

-بتملا حنكك بالحلفان كدب يا ابن الكلب؟ بتتبجَّح على ربنا..

ضربه والدة ضربة أخرى قوية بقدمه على جانب رأسه جعلته يفترش الأرض.

-ربايّتك من أول وجديد على إيدي يا قليل الحيا...

خرج حمدان من الغرفة، أغلق الباب خلفه، الغضب يعصف برأسه، الزوجة والأولاد الباقين خارج الغرفة يسمعون ولا يفهمون ولا يجرؤون على السؤال، ذهب إلى غرفته، أتى بقفل ومفتاح، أغلق غرفة عابد:

obeikan.com

-اللي هيفتح للوسخ ده هيتلقح جنبه بعد ما أدوسه برجلي، غُوروا من وشي كلكم!

تبخر الجميع من أمامه كأنهم لم يكونوا من ثانيتين فقط أمامه، خرج ليجلس على "الدكة" أمام المنزل، أشعل سيجارة تلو الأخرى، استغرق في تفكير مرير، ماذا يفعل؟ ابنه يضيع، أخلاقه تفسد، أخرج سيجاره من العلبة، نسي أن بيده أخرى مشتعلة، ألقى الاثنين متأففًا، دخل جبل وهو على حاله:

-سلام عليكم يا أبو عابد

-وعليكم السلام، متقولش أبو عابد قول يا حمدان عابد مات...

-مات!! إيه اللي عتقوله ده ..... (سأل بخوف حقيقي)

-هموِّته بيدي قبل ما يجبلنا العار خليفة الشوم ده

-ليه! إيه اللي جرى؟

قصَّ عليه ما حدث وما كان وما وجد، تعجب جبل!! كيف لعابد أن يفعل ذلك وهو ابنهم، تربى على ما تربوا عليه، عُرف عنه منذ الصغر أدبه ودماثة خلقه:

obeikan.com

-والله يا حمدان الدنيا ما بقى فيها أمـان، من يومين بتفرج على التلافزيون لقيت مذيع جايب راجل وبيقول إنـه قتل عيِّلة صغيرة عنديها أربع اسنين، بعد ما نام معاها، وِلد المجنونة كيف جاله قلب يقتل ملاك اصغيِر كيف البنيَّة دي، ولا البنيَّة أم أربع اسنين دي عنديها إية عشان ينام امعاها؟

-ماجبلناش الخراب والفساد إلا المخروب التلافزيون ده، قولتلك قبل سابق ماتدخلوش بيتك.

-عنديك حق يا أخوي، بس الدنيا مبقاش فيها أدب ولا أخلاق، حتى بلادنا بقت أكده برده، اللي مش هنشوفه في التلافزيون هنسمعه في الشارع...

-ربنا يسترها على ولايانا يا جبل

استمرا في حديثهما عن ضياع القيم والأخلاق التي ماتت، حتى في أشد الأماكن تمسكا بها، وبالعادات والتقاليد والموروث الشعبي، ترك جبل حمدان لمعاناته وألمه، من جراء فعل ولده وحنقه عليه، حائرٌ بين خوف الأب على ابنه وحنيَّته، وقسوة المربي وشدته، عاد لمنزله المجاور لمنزل حمدان، الملاصق لمنزل مهران.

(٦)

الماء في المرجل النحاسي يغلي فوق لهيب قتينة غاز أتى بها جبل من المدينة، لم يعتادوا إشعال النار للطهو، كانوا يشعلونها للتدفئة والتسلية وشرب الشاي عليها بعد صنع "راكية" نار، لكن منذ أن استوطنوا الخلاء ونارهم كلها من أغصان أشجار يابسة يجمعونها أو أخشاب يبتاعها لهم جبل كلما نزل إلى المدينة، تململ الجميع، ينزل جبل كل بضعة أيام إلى المدينة، يستقدم المُؤن اللازمة للطهو والشراب.

بقى حمدان عشرة أيام لم يمس جسده ماء، كان رغم خلو المكان إلا منهم، ورغم وجود أماكن خلف الجبل لن يراه فيها أحد، إلا أنه لم يستسغ فكرة أن يكون عاريًا في الخلاء يختبئ أسفل السماء بعورته الظاهرة، فلقد كان الحياء من سماهم حتى الرجال منهم، وكان جبل مثله، أما مهران فلقد اعتاد سريعًا وكأنه لا يبالي بشيء.

obeikan.com

النساء وجوههن مكفهرة لكنهن لا يتذمرن، لا ينطقْن، فهن مُقيمات أينما كان رجالهن، وإن كانوا في الجحيم نفسه، أصيلاتٌ نساؤهن، تموت المرأة بجوار رجلها إن احتاج ذلك منها دون أن تعتبر ذلك تضحية منها أو فعل يستحق المنّ أو الشُكر، بل هذا واجبٌ ومن لا تفعله آثمه خاطئة، يفعلن المستحيل ولا ينتظرن شُكرًا ولا يُشكرون.

الأولاد صغيرهم وكبيرهم لا يعرفون لمَ كل ذلك ولا يمكنهم السؤال، في شرعهم الابن طوْع أبيه، وإن خرج عنه أصبح كأنه لم يولد قط، كان جبل قد استقدم بعض الماعز ليرعوا في بقعة حشائش نبتت بجوار البئر، يتسلى بها الأولاد، وينشغلون ولا ينشغل الكبار، يذبحون منها وقت الحاجة، لا شيء يفعلونه، أغلب الليل لا ينامون، نفدت الحكايات، أما حكايات النساء فلا تنفد، فالحكايات تتفرع لكل فرع حكاية منفصلة تتشعب الأفرع وتتوالد ولا تنتهي الحكاية الأصلية أبدًا، مهران لا يُبالي، جبل حانق فارغ الصبر، راح يسلي مله بتعليم الفتية الصغار إطلاق النار مستخدمًا بعض الأحجار كأهداف، كل الأشياء متشابهة، الأيام، الساعات، الطعام، الوجوه، الرمال، الألوان من حولهم، إلا خوف مهران يتزايد، وغضب جبل يتفاقم، ولا يُظهر أحدٌ منهم شيئًا.

(٧)

قبل شهر وعشرة أيام من الهجرة

حمدان يجلس أسفل شجرة صفصاف عظيمة، أكبر منه سنًّا بعد شروق الشمس بوقت قليل، قيل له إن جده زرعها ليستظل بها المارة ليحسب له ولعائلته من بعده ثوابها، ترعة ضحلة أمامه، بعدها طريق ليس بالواسع، على ناحيته الأخرى منزله ومنازل أخوته متراصة متلاصقة، على الترعة قنطرة مصنوعة من نصف جذع نخلة شُقت بالطول "فلق نخلة" تقطع الترعة بالعرض ليمر عليها الراغبين في العبور على أقدامهم أو على ركائبهم، مستغرق في تفكير عميق مازال ما حدث مع عابد منذ خمسة أيام يؤثر على تفكيره، كيف لولده الذي صُنع على عينه أن يكون بمثل هذا الفحُش وهو مازال صغيرًا، ما باله إذا اشتد عوده وقوي زنده؛ أحينها يزني؟

-والله أقتله بيدي، وأدفنه تحت رجلي، ولا يعمل أكده.

صوت صراخ مرتفع لولد يبكي يقطع حبل أفكاره، نظر تجاه مصدر الصوت.. لا شيء، تكرر الصوت، أرتفع، نادى باسمه " ألحقني يا بوي حمدان"

خرج شديد أبن مهران أخيه من بيته مهرولاً مذعورا كمن ثكل أمه، هرول ناحيته، خلفه ببضع خطوات مهران ممسكًا بفرع يابس لشجرة رومان "هموتك يا ابن الكلب" ، أسرع الولد، وصل إلى القنطرة، نظر خلفه، تعثر، سقط في الترعة، الترعة ليست عميقة، جري إلى الناحية الأخرى وجسده مغموس في الماء حتى وسطه، أمسك مهران حجرا، قذفه به، لم يصبه، وصل شديد للناحية الأخرى، مد عمه حمدان يده إليه ليخرج، عبر مهران القنطرة:

- والله لو أتحميت في النبي ما هتفلت من يدي.

اختبأ شديد خلف عمه

- ألحقني يا بوي حمدان أبوس يدك.

حاول الوصول إليه، منعه حمدان، توسل إليه مهران أن يترك الولد،

سأله عما حدث:

- "ولدي وهربيه من أول وجديد".

أصر على ضربه، حمدان كبير في السن لكنه مازال قويًّا، بجسد قصير نوعًا ما ولكن ذي عضلات قوية ومنكبين عريضين ورأس كبيرة، دفع أخيه، تعثر في حجر، سقط أرضًا..

-أنت اتجنيت يا واكل ناسك؟ هتُضرب الوِلد قدامي وأنا واقف؟ مبقاش في خشى ولا توقير لكبيرك، يمين بالله لا أنت اخوي ولا أعرِفك إن فكرت تمد يدك عليه، قوم وأحكي اللي حصل...

هدأ مهران مغصوبًا، أعتذر لأخيه الأكبر، لطالما وقَّروا الكبير وأعطوه مكانته، الله في السماء لا يُعصى، وكبير العائلة على الأرض لا تُرد كلمته، أجلسه حمدان عن يمينه والولد عن شماله إلى خلف ظهره قليلاً، جالس هو في المنتصف بينهم

*****

قبل ذلك بخمس عشرة دقيقة

مهران جالس على كنبة عتيقة قديمة الطراز في صالة المنزل، يتناول

openkan.com

إفطاره، ولداه جالسان أرضًا يتناولان طعامهما على "الطبلية" ، زوجته تخدم عليهما، هي تأكل بعد أن يأكل الرجال، أو تأكل مع صغارها إذا ما كانوا صغارًا في غياب زوجها، كبير الدار لا يشاركه أحد طعامه، أين الاحترام إذا تساوى الكبير بالصغير، والرجل بالمرأة؟ يبدأ في الأكل فيبدؤون، ينتهون إذا انتهى هو، وإن كانوا ما زالوا جياعًا، حين يخرج أو ينام بعد الأكل تأكل النساء ومن بقى جائعًا من الأولاد، لا أحد يتذمر على ذلك، فمن ذا الذي يكفر بتعاليم الأجداد الصائبة أبدا؟!

أم شديد وضعت الطعام، دلفت إلى الداخل، كومة ملابس تنتظرها لتُغسل، ثياب الزوج وحدها، والباقي كله مجتمعًا، أمسكت جلبابًا لشديد فتشت جيوبه قبل نقعه في الماء، أمسكت يدها بشيءٍ، قطعة يابسة لا معالم لها، مغلفة بأحكام بكيس بلاستيكي لا يظهر ما بداخله، قلبتها في يدها، لم تعرفها، خرجت إلى حيث كانوا

- لقيت دي في سيالتك يا شديد، أيه دي؟

نظر مهران إليها، مد يده ناحيتها دون أن يتكلم، ناولته اللفافة، وضع بيضة كاملة في فمه، فتحها، نظر شديد تجاهه بلا أي تعابير على وجهه، أخرج مهران ما بها، فوجئ، لفظ ما فمه، سعل بشده، البيضة

وقفت في مريئه، تناول كوب ماء، شرب، نظر لشديد بغيظ

-أيه ده يا ولد الفرتوس؟ حشيش! شايل حشيش في سيالتك؟

صُدم شديد مما في يد والده، نفى أي علاقة له بذلك الحشيش، أقسم أنه لم يدخنه من قبل، لم يصدقه مهران، طوح الطعام من أمامه، هجم على شديد كجندي يأخذ بثأر صديقة الذي استشهد أمامه، أمسك بتلابيبه، صفعه، ألقاه أرضًا، هرول إلى الداخل، عاد بعصا الرومان في يده، زوجته حاولت منعه، صفعها بعنف، ابتعدت، لم تبك، النساء لا يعترضْن ولا حتى بالبكاء، ضرب شديد بالعصا على يده، صرخ، أقسم مرة تلو مرة عدم معرفته بالحشيش، ضربه ثانية، خرج من المنزل مهرولاً:

- ألحقني يا بوي حمدان.....

*****

نظر حمدان إلى شديد نظرة شك، انتحب شديد وعلى نشيجه، ترجى عمه أن يصدقه، نفى أي علاقة له، توسل أن يرحمه من بطش والده به، طلب حمدان منه أن يعود إلى المنزل:

openkan.com

-والله ما يبات في داري من النهار ده ولا دقيقة.

-قولتلك اسكت وسبني أنا هاتصرف.

هرول شديد عائدًا إلى المنزل، باكيًا يضم يمناه المضروبة إلى صدره، ظل حمدان صامتًا لبرهة لم تطل، وراح يقص على مهران ما حدث مع عابد ولده وما وجده عنده، تعجب مهران مستنكرًا من أن يفعل عابد ذلك، أستنكر أيضًا حمدان من فعلة شديد، صمت مطبق عم المكان:

-البلد دي ما بقت صالحة نعيش فيها يا حمدان.

-عنديك حق يا أبو شديد..... عنديك حق.

توالت أحداث مأساوية تدل على تردٍّ أخلاقي كبير في المجتمع القروي المحيط بهم، كل يوم يزيد الضغط عليهم، مما آلت إليه الأمور والأخلاق.

(٨)

قبل شهر وعشرين يومًا من الهجرة

الليل البهيم استحوذ على كل مجالات الرؤية، لا شيء سوى ظلامه الحالك، حقول قصب ممتدة على الجانب الشرقي من الطريق الخلفي للقرية، تبعث الخوف في القلوب، زادها رهبة يبوسها في مكانها منذ أن هجرها أصحابها بعد أن تركوا البلدة وهربوا إثر معركة ثأرية بينهم، وبين عائلة من قرية أخرى.

لا ضوء من القمر فهو غير موجود، سماء صافية من الغيوم والنجوم، رجل قادم من بعيد يترنم بأغنية قديمة، يُسمع صوته ولا يُرى منه غير وهج نيران سيجارته المشتعلة كلما سحب منها نفسًا، اقترب من نهاية حقول القصب، لا شيء يصدح في الأجواء غير صوت غنائه.

وقف فجأة... استرق السمع... صوتٌ قادمٌ من حقول القصب، صوت

obeikan.com

شد أجزاء سلاح آلي، تأكد مما سمع، قبل أن يتحرك طلقة خرجت لم يسمع صوتها ولكنه شعر بها تخترق فخذه، ترنح ولم يسقط، صرخ بألم، صوته ضاع في الفراغ، طلقة أخرى سمعها ولم تصبه، حاول التحرك، طلقة في رأسه نفدت من الخلف أردته قتيلاً، سقط من فوره على الأرض.

دقيقة مرت، دماؤه تغطي التراب وتمتزج به.. لا شيء، ذئاب تعوي من بعيد.. ولا شيء آخر، دقيقة أخرى تمر، خرج ملثم من حقول القصب، اتجه ناحية الجثة المسجية أرضًا، عينان فقط تظهران من لثامه، غل وكره ظاهر جليًّا بهما، كاد بنظراته أن يقتل الجثة المقتولة ألف قتلة وقتلة، وضع بندقيته على كتفه، أمسك بقدمي الجثة وسحبها بعرض الطريق حتى وصل إلى القصب المتراص في صفوف متساوية، سحبها إلى الداخل، اختفى معها داخل الحقول، ترك الجثة على بعد عشرة أمتار ثم خرج، عاد إلى مكان سقوط الجثة، خلع جلبابه، جلس أرضا على ركبتيه، راح يجمع التراب المختلط بدماء القتيل فوق جلبابه حتى أزال كل أثر للدماء على الطريق، حمله إلى داخل القصب تركه بجوار الجثة، نظر إليها، نزع لثامه، بصق في وجهها أنزل سلاحه من

على كتفه، صوب فوهة بندقيته إلى صدر الجثة ورأسها، تحمل خزنة البندقية ستة وثلاثين طلقة، كان قد أطلق منها ثلاثة حتى قتله وبقى ثلاثة وثلاثين أفرغهم جميعا في الجثة حتى جعل جمجمته وصدره كالمصفاة، تنهد بارتياح، أخذ جلبابه ثم ذهب.

obeikan.com

(٩)

قبل شهر وستة وعشرين يومًا من الهجرة

زبيدة واقفة بجمالها الفتان، وسمرتها القاتلة، وعينيها البنيتين أمام شاطئ الترعة معها علي، هائمين بفكرهما في جمال الطبيعة، حقول خضراء ممتدة على مرمى البصر، نسمات هواء عليل تقتحم أنوفهما، تداعب وجوههما، طبيعة ما زالت بكرًا لم تلوث بعد، تملك عائلة عمران ما يقارب الثلاثين فدانًا كلها متلاصقة قطعة واحدة؛ تبدأ من أمام ديوان العائلة محل سكن عمران وأولاده وتمتد..

علي يحوط كتفي زوجته بيده، يتذكران معًا أيام زواجهما الأولى، من خلفهما عيون صغيرة تتلصص عليهما من خلف شجرة كبيرة، ترك علي زوجته عائدًا إلى الدار ليجلب كرسيين للجلوس، خرج طفل صغير من خلف الشجرة لم يتخط العاشرة من عمره، اتجه ناحية زبيدة،

ناولها ظرفًا أبيض دون أن يتكلم، تعجبت، سألته ما هذا؟ رد عليها بأنه لا يعرف إلا أنه ظرف طُلب منه أن يعطيه إليها دون أن يراه أحد، ولما سألته من أعطاها إليه ناولها الظرف في يدها وهرول مبتعدًا، رغم تعجبها إلا أنها فضَّت الظرف، أخرجت منه رسالة مطوية بعناية:

" إلى من ظلت حية بداخلي حتى مات قلبي، وعاشت ذكراها بدلاً منه، إلى من عشقتها حتى ماتت كل النساء عداها في نظري، من اختزلت الأنوثة فيها، واستحوذت عليها وحدها، إلى من أنظر إلى صورتها يوميًّا ما أن أفتح عيناي، أقبلها، احتضنها ثم أعيدها إلى جيبي ثانية، إلى التي خانت حبي، وحان وقت الوفاء أو العقاب، سأنتظرك غدًا في المكان الباقي كبقاء حبك في قلبي لا ينضب، المكان الذي شهد كل لحظات عشقنا وهيامنا، إن لم تأت لا تلومي إلا نفسك، فشوق أشعله عودتك لا يستطيع مخلوق كبته أو تحجيمه"

ارتعدت فرائصها، لم تستطع الوقوف، ارتعشت، جلست أرضًا، اغرورقت عيناها دموعًا، خفق قلبها هلعًا، حب الماضي الميت يطاردها من جديد بعد مرور خمسة عشر عامًا على موته، ذنب ارتكبته، ولازالت مطالبة بالتكفير عنه، كانت قد نست ما سلف في حياتها السابقة في

obeikan.com

القرية، يالها من تعيسة!

ماذا تفعل؟ أتذهب لمقابلته وتعرض نفسها لخطر الفضيحة؟ أم لا تذهب وتعرض نفسها لرد فعل مجنون من حبيب سابق تعرف جيدا مدى ولعه بها، ومدى لا عقلانيته إذا تعلق الأمر بها؟

عليٌّ قادمٌ خلفها، خبأت الرسالة بين نهدها الأيمن وحمالة صدرها، لاحظ تغير ملامحها، سألها عما بها، ابتسمت بشحوب، أخبرته أنه لا شيء، لم يصدق، لكنه أعتقد أن هذا بسبب تغير الجو، والعودة إلى حياة كانت قد نسيتها.

قضت ليلتها مستيقظة تتقلب على فراشها تارة، تغادره لتجلس على الأرض تارة، تخرج إلى الشرفة تارة أخرى، في حيرة جمة من أمرها، ماذا تفعل؟ لا تعرف.. صراعٌ يغيم على عقلها، في لحظة يأس من كثرة الحيرة قررت أن تذهب لتعرف ماذا يريد، وليكن ما قُدر له كائنًا.

(١٠)

قبل عشرين يوما من الهجرة

الحاج عمران جالسٌ بعد صلاة العشاء في ديوان العائلة ومقر سكنه، يستقبل يوميًّا الوفود المُواسية له في فقد ابنه، مر على اختفائه حتى الآن ما يقارب الشهر، منذ عشرين يوما وبعد مرور عشرة أيام على اختفائه، شكل وهدان ابن أخيه وطه ولده شقيق علي المفقود مجموعة بحث من شباب العائلة، وبعض شباب العائلات الأخرى، ومنهم عابد وشديد أولاد حمدان وأخيه، للبحث في كل النواحي المحيطة بالقرية، راحوا يجوبون الطرق ذهابًا وإيابًا ليلاً ونهارًا باحثين عنه بلا جدوى، يسألون كل من يمر على الطريق بسيارة أو ناقة أو حتى حمار، يعرضون صورة له كانوا قد أخذوها من زبيده على المارة فينفي الجميع أنه رآه من قريب أو بعيد، فهو ابن القرية ولكنه في عداد الغرباء.

ذهب وهدان إلى القرية المجاورة التي قيل إن علي سيزور أحد أصدقائه القدامى بها، راح يقرع كل الأبواب، يسأل عنه وما من مجيب، يعرض صورته وما من عارف له، حتى وصل بالصدفة أثناء سؤاله أهل القرية إلى منزل سامي صديق علي القديم، ما إن رأى الصورة حتى تفاجأ من كلام وهدان، تهلل وجه وهدان فرحًا لما عرف سامي الصورة، سأله هل رأيته؟ قال إنه كان عنده في هذا اليوم بالفعل، ولكنه رفض المبيت عنده، وخرج من القرية وحده ليلاً عائدًا إلى منزله.

استنكر كيف لم يعد حتى الآن؟ أخبره أنه رفض أن يصحبه سامي معللاً ذلك بأنه يريد أن يسير وحده في الطريق ليسترجع ذكرياته الماضية، أخبره أنه مازال قويًّا لا يخشى الظلام، فتركه سامي حينها، ولم يدر بخلده يومًا أنه سيختفي هكذا، خرج سامي منذ ذلك اليوم بصحبة وهدان للبحث عن صديقه المفقود، الحيرة تملأ الجميع، كل الاحتمالات في رؤوسهم سيئة مريرة، أفضلها أنه خطف من بعض قطاع الطرق، لكن إن كان كذلك لمَ لم يتصل بهم أحد حتى الآن ليطلب فدية أو ما شابه؟

كان عمران كبير آل عمران، يجلس في صحن الديوان بجواره حمدان

كبير آل حمدان والشيخ ربيع حكم القرية وحكيمها يتسامرون، يتجاذبون أطراف حديث باهتة لا روح فيها هي فقط لتمضية الوقت، الأسى يملأ الجميع حتى الغرباء.

فجأة، صوت وهدان القادم من خارج البوابة قطع حديثهم، خلع قلوبهم من مكانها:

- يا مصيبتك يا بوي عمران، الحقنا يا بوي عمران، يا مراركم يا عمرانية...

نهض الجميع مذعورين من جلستهم، إلا عمران ألجمه صراخ ابن أخيه، فطن إلى ما هو قادم بعده، اندفع وهدان إلى الداخل، أمسكه الشيخ ربيع من كتفيه، أوقفه:

- فيه إيه يا وِلد؟

سقط وهدان أرضًا، لطم وجهه بعنف وهو يصرخ، دموعه تغرق وجهه:

- عليّ أتقتل يا بوي عمران، اتقتل والديابة كلت جتته، يا مراركم يا بلد، يا مراركم يا عمرانية.

هرج ومرج، الجميع يتحرك إلى اللا مكان، عويل النساء ارتفع في آن

obeikan.com

واحد، صرخات قوية مدوية حملت كل خوف الأيام الماضية والترقب، صرخات ملتاعة تفطر قلوب أشد الرجال بؤسًا، دموع عمران تنهمر بغزارة بلا صوت، زبيدة تقف في الشرفة، الآن تأكد حدسها، صرخت بكل ألم الدنيا كأنها الثكلى الوحيدة في البشر، صرخة لم تصرخ بعدها، خارت قواها، سقطت من الشرفة مغشيا عليها، النساء يولولْن، يُهِلن التراب فوق رؤوسهن، يصرخْن بلوْعة، يندبون بقهر، الرجال علا نحيبهم، وتعالت أصواتهم المعترضة على ما سمعوا، غير مصدقين له، صرخات وآلام، قلوب يقبضها الحزن، تغلي الدماء، تفور الأمخاخ في الجماجم، طه خرج من المنزل، لجم دموعه، توارى حزنه فجأة، ممسكا بيده بندقيته الآلية، عشرة طلقات في الهواء، سكت الجميع ناظرين إليه

-لما ناخد تار أبكوه، الرجالة تيجي معايا أنا ووهدان نجيب أخوي، الحريم تقعد، معيزش اسم صوت..

بعض النساء حملن زبيدة إلى الداخل، استقدموا طبيبة القرية، قالت إنه يجب أن تذهب إلى المستشفى، رفض عمران:

- معندناش حريم عتروح مستشفيات عالجيها أهنه.

obeikan.com

خرج الرجال معهم أغلب أهل القرية الذين تواجدوا حينما جاء وهدان بالخبر متجهين إلى مكان جثة علي، سأله حمدان أين وجدوه؟ ابتلع ما تبقى من دموعه وتماسك، أخبره أن الشباب كانوا يسيرون على الطريق الخلفي لفت انتباههم تواجد عدد كبير من الذئاب بداخل تلك المنطقة من حقول القصب المهجورة، تشجع بعضهم واقترب، ما إن اقتربوا حتى صدمتهم رائحة تعفن، دخلوا على إثرها وراحوا يبحثون عن مصدرها حتى وجدوا الجثة، أستنكر حمدان ما سمع فكيف عرفوا أنه قُتل بفعل شخص ولم يُقتل بفعل الذئاب؟ جاوبه وهدان أنهم وجدوا عشرات من فوارغ أعيرة نارية بجوار الجثة وثقوب عديدة في عظام جمجمتها.

وصل الجمع إلى المكان، ثلة من الشباب يحرسون المكان بسلاحهم، أنـاروا المنطقة بكشافات كهربائية محمولة وبعض النيران التي أشعلوها، دخل وهـدان معه طه وحمـدان والشيخ ربيع فقط، ومُنع الباقين من الدخول، قادهم وهدان وسط أعواد القصب حتى وصلوا إلى الجثة التي غطاها أحد الشباب بجلبابه.

أَمَـالَ طه جذعه، رفع الجلباب، ما إن رأى الجثة حتى صرخ بلوعة

صرخة شقت السماء ألمًا:

- أخواااااااااااااااي"

كانت الجثة مشوهة تماما، مبقور بطنها، تفوح رائحة العفن منها، نُهشت بفعل الذئاب لم يبق منها إلا القليل من لحم يابس علق ببعض العظام المتربة، اختفت معالم الجثة تماما، لكن تأكد طه أنه أخوه عرفه من ثياب ممزقة بجواره وساعة وقلادة عليها صورة زوجته كان يرتديها، أبعد الشيخ ربيع المكلوم أخيه عن الجثة، غطاها ببضع جلابيب هو وحمدان وقفا بجوارها حتى جاءت سيارة حملوا فيها الجثة، أو ما تبقى منها إلى المنزل.

*****

وقف الشيخ ربيع، وزايد عامل المسجد يحاولان تغسيل ما تبقى من الجثة، احتاروا في أمرها، جمعوا ما بقى من رفاته بعضه فوق بعض، أحكموا تكفينه ثم خرجوا وقلوبهم تدمي حزنًا على هذا المشهد الذي يرونه لأول مرة، خرجوا إلى صحن الدار حيث يقف الجميع ووسطهم عمران، في نفس اللحظة دخل من بوابة الدار النقيب مصطفى معاون مباحث مركز شرطة البلدة، ألقى السلام على الحاج عمران، رد

openkan.com

الجميع ولم يرد عمران، مد يده معزيًا له، نظر إليه شذرًا:

- معيندناش حد مات يا مُصطفى بيه.

-أمال ابنك ده إيه يا حاج عمران؟

-القتيل عندينا معيموتش إلا لما ناخده بتاره، وقتيها بس يبقى مات وناخد عزاه، ونِحزنوا عليه.

كان النقيب مصطفى من محافظة أخرى ساقه حظه العاثر ليخدم في تلك البلدة، في هذه المنطقة النائية، لم يكن يعرف عاداتهم، سمع كثيرًا عنهم، لكنه لم يختبرهم يومًا، أصابه غضب عارم، من رد عمران القاسي عليه، حاول أن يدخل إلى المنزل، وخلفه اثنان من أمناء الشرطة وأربعة من جنود قوات الأمن، تحديدًا ناحية غرفة التغسيل وهو يصيح في ثورة:

-الجثة دي لازم تروح المشرحة، ونعرف سبب الوفاة وتتعرض على الطب الشرعي ومش هتدفن إلا بتصريح من النيابة.

فجأة وبدون مقدمات ترسانة أسلحة متنوعة شُهرت في وجهه، بنادق آلية، مسدسات تسعة ملي، بنادق خرطوش، تقهقر من معه خطوة

obeikan.com

للوراء رافعين أيديهم إلى الأعلى، حاول هو أن يستل سلاحه من غمده، أوقفه أحد أمناء الشرطة الذي كان معه وهو من أهل البلدة..

-متحاولش يا باشا دول ممكن يقتلونا هنا وملناش عنديهم ديه..

تراجع النقيب مصطفى عما أراد، نظر إليهم بغضب، تقهقر عائدًا مع جنوده ورأسه يشتعل وهو يلعن ذلك الغباء والتمسك الأبله بموروث شعبي عفا عليه الزمن.

رفض عمران خروج أحد من البلدة لتشيع جثمان ابنه أو بالأحرى ما تبقى من عظامه، أمر طه ومعه وهدان وبعضًا من أولاد أخوته بالتوجه منفردين إلى المقابر ودفن الفقيد، نظر إلى المتجمهرين في صحن داره وخارجه:

-انتم أهلنا وناسنا وعارفين عوايدنا، سعيكم مشكور بس أحنا معيندينـاش حد مات ملوش لزوم وقفتكم.....

قال ودلف إلى داخل داره، لم يعترض أحد على ما قاله، انسحبوا واحدًا تلو الآخر بدون أن ينبسوا ببنت شفة

دُفن القتيل الذي لا يعرف أحدٌ من قتله، واشتعلت القرية بنار الثأر.

(١١)

قبل شهرٍ من الهجرة

كثرت الحوادث وتعاظمت قوتها، تفاقمت خطورتها وتباينت، تارة ابن حمدان وتارة شديد ابن مهران، وتارة ما يشاهده جبل في التليفزيون ويخبرهم به، شعر حمدان أن القرية فسدت كفساد أهل لوط، اجتمع ذلك اليوم الأخوة الثلاثة في بيت كبيرهم حمدان، بناء على اقتراح وطلب مهران، بدأ هو بالحديث عما يحدث في القرية منذ سنوات من تردٍّ ملحوظ للأخلاقيات حتى وصل التردي إلى قمته حين وصل بيوتهم وهم أكثر الناس محافظة على التقاليد.

وافقه جبل على كل ما قال، وأثنى حمدان بمرارة على كل ما ذكره مهران، سألهم عن حلول لما هم فيه، وكيف يستطيعون حماية أهلهم من هذا المد اللاأخلاقي؟

كان خوف حمدان هو أعظمهم؛ فلديه فتاة، والفتاة في عرفهم قنبلة موقوتة يجب التخلص منها بالزواج قبل أن تنفجر، تولد الفتاة طفلة لا وزن لها ولا قيمة ولا أهمية فيما عدا خدمتها لأبيها وأخوتها الذكور؛ فهم أعلى منها مرتبة وأشرف فقط لأنهم ولدوا ذكور لا لأي ميزة أخرى، يتم اختيار زوج لها تراه مرة واحدة قبل الزواج – إن أتيح لها ذلك – تتزوج لتنتقل من التهميش في بيت والدها، إلى التهميش في بيت زوجها مع ارتفاع المطلوب منها، فحينها تكون خادمة في البيت نهارًا، تجيد رفع ساقيها ليلاً ثم إنجاب الأطفال بلا عدد أو حساب، تُنجب حتى تتوقف أجهزتها التناسلية عن العمل.

كان حمدان يخاف أن يطال ابنته ذلك المد المتردي فيغرقها في وحل الرذيلة، ويغرق كل من يمت لها بصله معها، فخطيئة الرجل تطاله وحده، وتندثر مع الزمن، وخطيئة الفتاة تطال الكل، وتتفاقم مع الوقت.

قفز مهران من فوق "الدكة" قفزة مفاجئة انتزع بها حمدان من أفكاره:

-لقيت فكرة جهنمية يا أخوي...

-خرعتني يا وِلد! قول فكرتك...

راح مهران يسرد لهم مقدمة عريضة للمرة الثانية عن التردي الأخلاقي والفساد الواقع الملموس، ثم أقترح أن يتركوا البلدة ويهاجروا إلى الصحراء في مكان ناءٍ خالٍ من الناس، يحيوا منفردين الأخوة الثلاثة وعائلاتهم، يتركون كل أولاد العمومة والقرية بفسادها والأقارب لحالهم، يهجروا الفساد ليبنوا معا مجتمعًا خاصًّا بهم، تحكمه الأخلاق التي تربوا عليها ويعرفونها منذ القدم، يهاجروا كما هاجر الأنبياء، فالهجرة ليست بالشيء المشين بل المشين هو المكوث وسط كل تلك القاذورات وانتظار الوحل حتى يغمرهم.

لم يقتنع حمدان بما قال، وتظاهر جبل أيضًا بذلك، أصر مهران على فكرته وراح يعدد مزاياها وكيف لابنة حمدان أن تتزوج أحد أولاد عمومتها والشباب عندما يصلون سن الزواج يكونون قد رسخوا هم مجتمعهم ويستطيعون الإفصاح عن مكانهم، ويختاروا من قريتهم من هي أهل للزواج، ويوافق أهلها على أن تمكث معهم في الصحراء، لكن هذا مؤجل، ولا يجب أن يعرف أحد مكانهم، حتى يرسخون مجتمعهم ويصنعون معًا قوانين صارمة لكل من سيدخل معهم فيه بعد ذلك.

أصر حمدان على رفضه حنينًا لقريته وأصله ومكان ولادته ومعيشته

كلها، اقتنع جبل وراح يقنع حمدان، استمرا في محاولاتهم ثلاثة أيام متواصلة حتى اقتنع أخيرا، وقررُوا الهجرة وراحوا يُعدون العدة لذلك ويُخططون لها.

obeikan.com

(١٢)

قبل الهجرة بثمانية عشر يومًا

كان النقيب مصطفى في اليوم السابق يتجول بسيارة الشرطة "البوكس" على الطريق في إحدى دورياته المفاجئة التي اعتاد الخروج بها في أوقات متباينة لمحاولة الإمساك ببعض مروجي المخدرات أو تجار الأسلحة الذين تزخر المنطقة بهم، يصطحب معه قوة قليلة نسبيا مكونة من ثلاثة أمناء شرطة، وسائق السيارة.

أثناء مروره على الطريق الجانبي للبلدة في الثانية عشر بعد منتصف الليل وجد وهدان يسير منفردًا في الظلام، أمر السائق بالاقتراب منه بتمهل، سمع وهدان صوت سيارة من خلفه، بكل ثبات نظر تجاهها، عرف من أضوائها أنها سيارة شرطة، توقف، أوقف السائق السيارة، نظر له من النافذة مصطفى:

obeikan.com

-رايح فين متأخر كده يا وهدان...

-مفيش يا باشا بروح شوية عن نفسي في أرض ربنا...

لاحظ النقيب مصطفى بعين الخبرة انتفاخ أسفل جلباب وهدان من الناحية اليسرى أمام القلب مباشرة، هبط من السيارة، ما إن فتح باب السيارة حتى هبط أمناء الشرطة من مؤخرتها متجهين ناحية وهدان بطريقة آلية اعتادوها، أحاطوا به، واحد عن يمينه والثاني عن يساره والأخير من خلفه ووقف مصطفى في مواجهته، نظر وهدان إليهم في لا مبالاة بدون أن يتحرك، واجه مصطفى...

-فيه إيه يا باشا؟

-انت اللي هتقولنا في أيه يا وهدان....

قال وهو يمد يده يفتش ثيابه، أخرج من جيبه الأيمن علبة سجائر وقداحة وعلاقة مفاتيح مد يده ناحية جيبه الأيسر، أمسك وهدان يده بقوة:

-دي يا باشا لا مؤاخذة مش سيالة دي فتحه لو مديت يدك هتمسك اللباس أو حاجة تاني، ميصحش يا باشا!

openkan.com

نظر إليه مصطفى بغضب، سحب يده، مدها إلى داخل الجلباب إلى " الصديري " نظر إليه وهدان دون أن يتحرك بسخرية، أدخل يده في الصديري أخرج من جيبه رزمة أموال وطبنجة عيار ٩ ملي وخزنتين إضافيتين محشوتين بطلقات من نفس العيار، نظر إليه مصطفى وهو يقلب الطبنجة في يده

-إيه ده بقى يا وهدان؟

-إيه يا باشا! سلامة الشوف معتعرفش إيه دي؟ دي طبنجة يا باشا بريتا إيطالي، أجيبلك زييها؟ حلوه قوي في القتل وانت قريب من القتيل، تضرب الطلقة وتشوفه وعنيه بتغيب وروحه بتنسحب منيه وتشفي غليلك، ما انت معتقتلش حد إلا لو كان ليك عيندیه تار، ولا صوح أنت مش منينا فمعتفهمش حديتي.

ضحك مصطفى في مرح غير مصطنع:

-عارف أنها طبنجة، بس هي مترخصة؟

-عايز إيه يا باشا من الآخر؛ طول عمرنا عنمشي بسلاحنا، وطول عمركم يا حكومة عارفين أكده، وسلاحي مترخص وأنت متأكد.

obeikan.com

-بس مش طول عمركم عندكم تار يا وهـدان، في المركز هنعرف مترخصة ولا لاه تعالى معايا..

ركب النقيب مصطفى، وركب وهدان بصحبة الأمناء، ذهبوا إلى مقر مركز الشرطة، أدخل وهدان الحجز، تركه وعاد إلى سكنه.

في اليوم التالي صباحًا توجه عمران إلى المركز، طلب مقابلة العقيد حسام الأمير رئيس المباحث، كان لعمران علاقات في المركز بالجميع، وهذا سبب معرفته بما حدث لوهدان ليلاً من قبل أحد الخفراء الذي ذهب إليه الديوان وأخبره، دخل على العقيد حسام، تبادلا التحية، دعاه حسام للجلوس:

-مفيش وقت يا بيه، عايز وهدان، دي رخصة سلاحه، ملهاش داعي حبسته دي..

-أهـدى يا حاج عمران، أنت عارف أن مصطفى مش جايبه علشان السلاح، احنا عارفين أنه مترخص، أنت عارف أنه جاي علشان التار اللي عايزين تاخدوه من قاتل ابنكم اللي محدش عارفه، احنا مش اعدائكم وعايزين نساعدكم بس بطريقتنا، مش طريقتكم دي

-حديتك ملوش لزوم يا بيه، وفره على نفسك ووفر عليّ وقتي، عندي تار عايز ألحق أدور عليه، وانتوا عدوينا لو وقفتوا في طريقنا وحاولتوا منعنا من حقنا، وخلي بالك يا بيه الطلق الطاير معيفرقش بين ظابط وحد عادي..... (قال باقتضاب).

ثارت ثائرة حسام، كيف يكلمه عمران بهذا التبجح وتلك اللامبالاة، صرخ في وجهه، انفعل، نفث غضبه في وجهه رافضًا أسلوبه في الحديث، نظر عمران بلا أي مشاعر على وجهه، أنهى حسام حديثه، ثانيتين من الصمت، استدار عمران عائدًا من حيث أتى:

-وهدان عيندكم، مش عايزينه، فيه كتير غيره.

نظر تجاهه وهو يدق الأرض بعصاه:

-سلام عليكم يا باشا!

خرج عمران بلا أي تأثر، بلا أي قلق أو خوف على ابن أخيه، ترك حسام في حيرة من أمره يعرف أن أيامًا حالكة السواد قادمة، ليس بيده حيلة ليمنع الأمر خصوصا أنه حتى الآن لا يعرف أحد من القاتل، لم يكن هناك سند قانوني ليحتجز وهدان، أطلق سراحه في مساء

نفس اليوم، جمع جميع طاقم المباحث من ضباط وأمناء شرطة ومساعديهم، خاطبهم بحزم بوجوب العمل بجدية على معرفة من القاتل، ومراقبة جميع العمرانية على مدار الساعة، والاستعداد لما هو قادم، ألغى الأجازات للجميع، دعا الله أن يحفظ أرواحهم ويحصن دمائهم، صرفهم، جلس وحيدًا يفكر والهمُّ يعتليه:

-مكنش ناقصني أنا إلا تار كمان، يارب سترك!

obeikan.com

(١٣)

قبل الهجرة بعشرة أيام

شباب العمرانية في تحفز دائم، ينقبون الأرض، يحفرون نوايا الناس محاولين الوصول إلى قاتل علي، الجميع محط شكهم، سألوا الكل، لا أحد يجيب بشيء يشفي الغليل، فلا أحد يعرف شيئًا، هو جديد في القرية لا عداوة له مع أحد، وكذا لا عداوة لعائلته، شيوخهم مجتمعين على الدوام في ديوان عمران يتناقشون، الغضب عارم يصل إلى ذروته، لكن الملامح جامدة كأن لا شيء حدث وكأن ليس لمصيبتهم وجود.

القلوب محترقة حزنًا على فقد علي، وحرقة أكبر رغبة في الثأر. القاتل يُقتل ولو بعد حين، رأس برأس وإن زادوا زادوهم، يموت الرجل فداء ثأره، فيبقى خالدًا بين أهله بشرف يتغنون بسيرته العطرة، من يترك دمائه هباءً تلك حياة ذليلة، يتوارث أهل الميت شرف رجولته ويتوارث

obeikan.com

أهل التارك الذل والعار أبد الآبدين حتى تقوم الساعة، أو يأتي فيضان يبيد كل من يعرف السر.

الحزن في القلب لا يهدأ بالثأر بل يبدأ ولكن قبل الثأر لا حزن، فقط صبر وجلد وتماسك، لا يجف الدم بالقدم وإن مرت مائة عام تبقى رائحته تحوم حول أهله، يُؤخذ بالثأر فتغدوا رائحة دمائه ذكرى..

نمْ يا فقيدي وأهنأ بموتك، فلم تذهب دمائك هباءً...

هذا شعارهم وإيمانهم المطلق، الكل باحث مهرول، الجميع في عمل دءوب، يشقون السرائر بحثًا عن دفينة في نفس أحدهم تصلح لتكون خيطًا يدلهم إلى القاتل، الأيام تمرق سريعة والغضب يشتعل أكثر لا يقل، الثأر نار تتأجج كلما تأخر تنفيذه، ولا تُطفأ إلا بالدماء.

زبيدة في عالم آخر تفيق من الغيبوبة، تبكي بحرقة، دموعها تغرق وسادتها دون صوت، لا تتكلم، تعود لغيبوبتها مرة أخرى ليوم أو أكثر، تفيق لتبكي ليغشى عليها مرة أخرى.

الكل يشتعل، الكل حزين لكن الجميع رابط الجأش، صلد، صلب كصخرة سيف آرثر، لا يكسرها أحد، ولا ينزع السيف سوى يد آرثر،

كذا لا يُطفئ نيرانهم إلا دماء الثأر، ليذهب الغضب، ويترك المجال للحزن، ليعتلي الوجوه ويُمسك بتلابيب القلوب.

obeikan.com

(١٤)

قبل شهر و٢٥ يوما من الهجرة

ذهبت زبيده إلى الطاحونة المهجورة لمقابلة حبيبها السابق، كانت أغلب ذكريات طفولتها ومراهقتها في هذا المكان، الطاحونة مهجورة منذ القدم، لا يعرف أحد متى لم تكن كذلك فمنذ أن وُلـدوا وهي مهجورة، لا يأتي إليها إلا العشاق في وسط النهار، أثناء نوم الجميع ظهرًا في فترة القيلولة، لا يقربها أحد ليلاً فهي مرتع للذئاب ما إن حل المساء.

وصلت إليها، التفتت حولها.. لا أحد.. دلفت إلى الداخل، ما إن تدخل الطاحونة حتى تختفي فإن بحث عنك أحدهم لن يجدك لاتساعها وكثرة المخابئ بها، راحت تتفقد الطاحونة، تذكرت أيام صباها، حنين يغزوها لطفولة ومراهقة عاشتها هنا، لم تحن أبدا لحبها

obeikan.com

القديم، افترشت الأرض، أسندت ظهرها إلى أحد الحوائط.

هاجمتها ذكرى آخر مرة قابلت فيها حبيبها السابق هنا في نفس المكان، كان هذا منذ خمسة عشر عاما حين طلبت أن تقابله في أمر هام، حضر وحضرت والصمت عم المكان، نظر إليها بوله، توترت، هائمٌ هو في ملامحها، ضائعة هي من نفسها، لا تستطيع أن تجمع شتاتها، حثها على الحديث، تلعثمت، توتر، ساوره شك أن هناك أمر جلل، نهرها حتى تتحدث، فلتت دموعها رغما عنها في سكون، هدأ ما إن رأى دموعها، ضمها إليه، أبعدته بطريقة آلية عنها، لا يحق له أن يحتضنها وإن كان حبيبها، مد يده، مسح دموعها، سألها مرة تلو الأخرى عما بها، بكت، زاد بكاؤها، علا نشيجها، بكت بحرقة وحسرة متألمة، جُن جنونه، صرخ في وجهها مستحلفًا لها أن تنطق أن تتحدث وتخبره ما بها؟ ما سبب بكائها؟ الدنيا وما عليها فداء قطرة واحدة من دموعها التي تترقرق من مقلتيها، هدأت، كفكفت دموعها:

-قروا فاتحتي عشيَّة على عليّ وِلد عمي عمران...

صمتت دهرًا ونطقت كفرًا، سمع كلامها، تسمر في مكانه، طأطأت رأسها باكية، ترنح من هول الفاجعة، جلس أرضًا، راح يضرب رأسه

بيده...

-كيف ده؟ كيف أنا كلمت أبوكي عليكي وطلبت يدك، قلي هيشاور ناسه ويرد عليه، أنا أحق بيكي منيه، أبوكي رمي كلمته معايا في الأرض.

-عمي عمران جه تاني يوم أنت كنت عندينا فيه لأبوي وطلبني لولده، قاله أبوي أنه تقريبًا وافق على خطبتك، عمي غضب قاله من ميتا بناتنا عتتجوز غريب، وولد عمها موجود، أبوي أتحرج من أخوه الكبير، ووافق وقروا الفاتحة في نفس اليوم.

راح الحبيب الذي ثكل حبه يصرخ ويبكي كالنساء يرفض ما حدث، أخبرها أنها له، أنه سيفعل المستحيل، سيذهب إلى والدها مرة أخرى ويطلب يدها، سيكلم كبائر القرية، سيجعلهم يتدخلون، كانت عاقلة؛ قالت إن الأمر قد انتهى، وانتهى الحب، البنت لابن عمها حتى ولو كانت تفضل الموت على الزواج به، حتى وإن كان هو أسوء أهل الأرض، فلا مفر من ذلك، حتى الموت رفاهية لا تستطيع الحصول عليها. تركته لحاله، ودعته بنظرة ألم، ودعت حبيبًا تمنَّته يومًا زوجًا، وحالت العادات بينهما.

- زبيدة .... زبيدة!

obeikan.com

نزعها من ذكرياتها صوت الداخل إلى الطاحونة مناديًا باسمها، خرجت من مكمنها، هو حبيبها السابق، تهللت أساريره لحظة أن رآها، ابتسم فرحًا، نظرت إليه بوجه عبوس، سألته بلا مبالاة وهي تشيح بوجهها عنه عن مراده، أخبرها بشوقه إليها، أنه أراد أن ينعم ببعض الحديث معها، أراد أن يعود لحب قديم تغلغل في القلب منذ القدم ولم يبرحه حتى الآن.

-أنت أتجنيت ولا أيه؟ عايزني أخون جوزي وأبقى معاك في الحرام؟ أزني؟ الحرة ما تخون جوزها، حتى لو ما حبته وأنا حبيت جوزي ... فاهم حبيته.... (بغضب قالت)...

-سيبتيني زمان عشانه ودلوقتي بترفضيني عشانه؟ أنا عايش الخمستاشر سنة اللي عدوا على أمل اللقا، على أمل أنك هرتجعيلي في يوم، أنا لسه بحبك يا زبيدة

-كان.. كان ماضي وخلاص خولص، أنا جيت لأجل عشرة قديمة كانت بينتنا، جيت علشان أقولك إنه ملوش لزوم، لكن حديتك ماسخ ميلزمنيش منه شيء، سلام!

قررت الخروج والمغادرة، اتجهت ناحية الباب مارة بجواره، قبض على

كتفيها بقوة:

-أنتي بتاعتي يا زبيده، فاهمة؟ ملكي، اللي ماخدتوش منك بالرضا هاخده بالعافية.

دفعها، تعثرت في ردائها، سقطت أرضًا، حاولت النهوض سريعًا... لم تفلح، في لمح البصر، جثا فوق بطنها قاعدًا، ركبتاه التصقت بالأرض، أمسك يديها وضعهما تحت ركبتيه، ضغط عليهما بكل ثقل جسده، أمال جسده ناحيتها، راح يقبلها، بصقت في وجهه، صرخت، انفعلت، سبته، راح يلعق وجهها، لا أحد يسمعها ولن يسمعها أحد، سكِر بخمر رغبته، أراد مضاجعتها لا اغتصابها، أراد لقاءً حميميًّا بحبيبته فراح محاولاً الاستمتاع بكل جسدها، حاولت التملص منه، رفعت جسدها لأعلى بساقيها، ثقله كبير لم تستطع زحزحته، أمسك نهديها من فوق ثيابها، ضغطهما بعنف، بتوحش، برغبة مكبوتة منذ خمسة عشر عامًا، صرخت أكثر..لا فائدة، أعتصر نهديها، قبل وجهها، سال لعابها فوق وجهها

-هوسخك يا زبيدة وأدوس شرفك!

-قوم يا كلب سيبني.... (صرخت باكية)

ردائها واسع، مد يده، أخرج نهداها عنوة، قبضهما بقوة، غاب عقله ما إن لامست يده نعومة أثدائها، ضعُف ضغط قدميه على يديها، التقم أحد ثدييها بفمه، اعتصر الآخر بيده، مد يده الأخرى محاولا تحرير قضيبه من مكمنه، زاد جنونها، زادت قوتها، حررت يداها من أسفل ركبتيه، صراخها يصم الأذان لكنه لا يسمع إلا شهوته، خمشت وجهه بأظافرها، لم يتأثر، لم يعد للألم مكان، طغت الرغبة الممزوجة بالشهوة على كل أحاسيسه، حاولت أبعاد فمه عن حلمة ثديها القابض بأسنانه عليها، لم تفلح، راحت تهيل التراب عليه، بحثت يدها عن شيء، صادفت حجرا، بكل غيظها وشرفها المهدد ضربته على رأسه، ترك حلمتها صارخًا، ضربته ضربة أخرى على رأسه، فارت دماؤه، سقط من فوقها على يسارها، أزاحته، نهضت مسرعة، حاول النهوض، جالس على ركبتيه منتصب الظهر، ضربته بقدمها بين فخذيه بكل قوة الحرة المدافعة عن شرفها، الحرة لا تزني، تموت ولا تُغتصب، تأوه صارخًا، غابت عيناه، سقط أرضًا، هرولت خارجة، تسارعت أنفاسها، لم تبك، لا يُبكي الحرة خسيس الرجال، نهض مترنحًا، حاول اللحاق بها، كانت قد ابتعدت ما يكفي كي لا يلحق بها، صرخ بكل رغبته التي لم تُشبع

Obeikan.com

-هاقتله يا زبيدة، هاقتله وأحرق قلبك عليه زي ما حرق قلبي عليكي زمان، وزي ما حرقتي أنتي قلبي دلوقتي.. سامعه يا زبيده هاقتله، هاقتله..

سمعته، لم تنظر إلى الوراء، لم تلق بالا لما قال، من يقتل شجاعًا والشجاع لا يغتصب النساء، وصلت أول الطريق المأهول، على يمينها ترعه، نفر من الناس قادم من بعيد، ألقت نفسها في الترعة، صرخت مستغيثة، توجه المارين ناحيتها مسرعين، قالت لقد زلفت قدماي وأنا سائرة فسقطت، خلع أحد الرجال جلبابه وألبسها إياه، أعادوها إلى منزلها، تلقفها زوجها هلعًا عليها، طمأنته، ولم تحك لأحد شيئًا، فقط بررت وجودها في تلك المنطقة بأنها تاهت أثناء سيرها في شوارع القرية، فلقد تغيرت ملامح الطرق كثيرًا عما مضى.

(١٥)

قبل الهجرة بشهر وثمانية عشر يومًا

دخل مهران على أخيه جبل منزله ليلًا معصوب الرأس إثر جرح زبيدة له الذي لم يلتئم بعد، نزعة من وسط أسرته جذبًا، قاده إلى غرفة الجلوس، أوصد الباب بإحكام:

-أنا في مصيبة يا جبل...

-خير يا مهران! إيه اللي حوصل...

قص له مهران ما حدث بداية من الرسالة التي أرسلها إلى زبيدة ليداعب بها أذنها وقلبها رغبة في إحياء حبه القديم مرورًا بيوم لقائهما، وما حدث فيه من محاولته مضاجعتها بالقوة أو بالأحرى اغتصابها، ومن ثم جنونه برفضها له وغياب عقله في غيابات الغيرة والانتقام مِمَن لم يفعل له شيئًا وصولاً إلى اغتياله عليّ بخسة منقطعة

النظير قبل ليلتين.

حكي وهو يرتجف وجبل فارغًا فاه لا يصدق ما فعله أخوه الأكبر، ويلقيه على مسامعه في هذه اللحظة، فرغ مهران من حكايته، جلس مرتعشًا، صمتٌ غلف الكل لا يخترقه سوى خوف مهران وذهـول جبل، برهة قصيرة مرت عقبها دقائق أطول وصلت حتى الخمسة عشر دقيقة، حاول جبل الكلام، خرج الحديث من فمه مبهمٌ غير واضح المعالم كطفل تعلم الكلام حديثًا، نظر مهران إليه، ومازلت رعشته تسيطر على كل جسده..

-معايزش أموت يا جبل...

-اكتم حسك خلينا نفكروا هنعمل إية في الوقعة دي

قطع جبل الغرفة ذهابًا وإيابًا مرة تلو الأخرى، يضرب كفيه بعضهما ببعض، لعن مهران كثيرًا، تساءل أين كان عقله؟ لكن ما من مجيب، رحل غضب مهران الذي جعله يقتل، وبقى خوفه على حياته، ورهبة الموت بداخله، ظهر جليًّا معدنه الجبان في وقت الحاجة، قفز مهران فجأة، قال لجبل إنه وجد الحل المناسب الوحيد لما صاروا فيه، الحل هو الهروب، يجب أن يهربوا، يهجروا القرية إلى مكان ناءٍ لا يعرفهم

أحد فيه، نهره جبل، نسي من فيهم الأكبر سنًا وراح يعنفه، استنكر بحدة رغبته الجبانة في الهرب...

-نهربوا ولا أموت يا خوي؟ وبعدين محدش عيعرف حاجة، شوية والموضوع يتنسي ونعاودوا تاني لبلدنا..

ظل مهران ممسكًا أذن جبل بلسانه محاولاً إقناعه بأن هذا هو الحل الوحيد، الهرب من هنا حتى لا يطال أحدهم الثأر إذا عرف العمرانية أنه القاتل، رفض جبل، يفضل الموت على عار الهرب، ترجاه مهران باكيًا، رق قلبه لبكاء أخيه سأله لماذا لا يهرب وحده؟ أجابه بأنه حينها سيشك فيه الجميع، وسيكتشفون أنه هو القاتل لأنه أيضًا يخاف أن تحكي زبيدة ما حدث، حينها سيطالهم الثأر.

اقتنع جبل برده، وافق على مقترحه مرغمًا، باتا ليلتهما يتشاورا ويضعا خطة لإقناع حمدان بهذا الأمر، ذُهل جبل من كم الأفكار الخبيثة الشيطانية التي يملكها أخيه، لكنه طاوعه مرغمًا، ففي النهاية الدم واحد والعار واحد والثأر يُؤخذ من المتاح وليس الفاعل فقط.

-إنت إيه يا جدع شيطان؟ إيه كل الشر اللي جواك والتخطيط الخبيث ده كله؟

-الشيطان ده بتاع الضعفا بس يا اخوي، يخافوا منيه ويعملوله حساب ويقولوا إنه هو اللي عيوزهم على الشر، لكن اللي زينا احنا شيطانهم مات من زمان، وهما بقوا مكانه. قتلوا شياطينهم وبقوا هما شياطين أكبر منيهم.

*****

قبل شهر وأربعة عشر يومًا من الهجرة

مهران يجلس مع عابد ابن حمدان في غرفة الأخير يتسامران، لاطفه، تودد إليه، أخبره أنه رجل جيد، أنه يريده أن يصبح أفضل منه ومن أبيه، طلب منه أن يحضر له كوب ماء، خرج عابد، أوصد مهران الباب بإحكام، تلفت حوله كالباحث عن دفينة، أخرج من جيبه مجلة جنسية، وضعها أسفل فراش عابد، وجلس مكانه مرة أخرى، بريء كبراءة عذراء يوم عرسها.

في اليوم التالي أرسل شديد ولده ليخبر عمه بأنه رأى أحد المجلات المخلة في يد عابد وأنه يخبئها في غرفته أسفل فراشه.

*****

obeikan.com

قبل شهر وعشرة أيام من الهجرة

مهران عائد من صلاة الفجر، توجه إلى غرفة الغسيل، أمسك جلبابًا متسخًا يخص ابنه شديد، وضع بداخله قطعة ملفوفة بغطاء بلاستيكي بعناية تحتوي على مخدر الحشيش، عاد إلى فراشه ليكمل نومه، بعد أن أدى صلاته، ونفذ جزءًا من خطته.

obeikan.com

(١٦)

تململ إبليس الكبير في جلسته، أشار لقائد شياطين الجنوب أن يكف عن الحديث، صمت لبرهة كأنه يسترجع ما قصه عليه، نظر إلية باستحقار:

-أين هي فتنتك التي أحدثتها، وبناءً عليها قرر مجلس الشياطين الأعلى إعفائك من عقوبتك السالفة؟ كل هذا حدث قبل أن ترى أنت هؤلاء البشر.

طأطأ قائد الجنوب رأسه خجلاً، قال له إن هذا حدث في الماضي، وهو مقدمة لما حدث بعد أن وجدهم هو، لكن كان لابد أن يسرد له ما عرفه من قرناء البشر بعد أن استجوبهم وأرغمهم على أن يقصوا له ما حدث، وسبب مجيء هؤلاء البشر إليه

-هـؤلاء القوم لا يحتاجون وسوستك أو فتنتك ليقتلوا، القتل لديهم

obeikan.com

سهل رغم أنه من أعظم الكبائر عند الله، يحتاجون فقط أن يؤمنوا بعاداتهم وتقاليدهم ويسيروا على نهج قدمائهم، لقد فاق شر البشر شرك، وظهر ضعفك أمامهم، أين أنت من شر عمران وقراره أخذ الثأر وسفك الدم؟ في البداية أين أنت من شر مهران؟ ومحاولته اغتصاب زبيده وقتله لعلي؟ إن كان الشيطان تسمية تُمنح للأكثر شرًا فهم أولى باللقب منك.

طأطأ رأسه للمرة الثانية، أخبره أن دوره هنا قليل لكن أثره عظيم، لم تتخط وسوسته بضع كلمات، ولكن كان لها الدور الأعظم في استمرار الفتنة وتأججها، قال له

-سيدي وأبي الشيطان المعظم! انتهجت نهجك المقدس في الفتنة، فكما سبق ووسوست أنت بكلمات قليلات لآدم بأن يأكل من الشجرة وتركته يفعل بعد ذلك ما فعله من عصيان، كانت كلماتك قليلة ولكن أثرها ممتد عبر الزمن وإلى الأبد، كذلك فعلت، وستعرف ذلك فيما هو قادم من قصتي...

هدأ روع إبليس قليلاً، شعر بالفخر لثناء قائد الجنوب على فعلته الكبرى التي كانت أساس وجود جنس الشياطين، أشار له بتكملة حكايته مخبرًا

obeikan.com

إياه أنه هو من سيحكم على قصته إن كانت تستحق أن تمحي عنه عقوبة النفي السابقة أم لا، وقرار مجلس الشياطين الأعلى لا قيمه له بجوار كلامه، فعاد من فوره إلى سرده.

obeikan.com

(١٧)

أخر أيام الصحراء بعد الهجرة بشهر

الملل كاد أن يقتل الجميع رجالاً ونساءً، لم يعتادوا على مثل هذا، لا يغير الإنسان عاداته بسهولة ولا يتأقلم على بيئة جديدة في وقت قريب، ولا يحب الهجرة إلا مضطرًّا، حمدان بات نادمًا على موافقته لأخوته على اقتراحهم، جبل ومهران لا يتكلمان إلا نادرًا، غاضب هو جبل، لا يكلمه ولا يسمع منه إلا للضرورة القصوى.

اليوم موعد الذهاب إلى المدينة، وحده جبل من يذهب، حمدان كبيرهم والكبير يُخدم ولا يخدم لا لميزة إلا أنه سبقهم على غير إرادة منهم في النزول من رحم أمه، مهران يخشى الخروج كفأر صحراء يرتعب من القرية وسكانها، يصطحب جبل كل مرة معه أحد الأولاد الرجال ليروح عن نفسه وحتى لا يقتلهم الملل، أما الفتيات فلا حقوق

لهن حتى حق الملل والسأم رفاهية غير متاحة لجنسهنّ.

اليوم دور شديد، لبس جلبابه على عجل فرحا، سيغادر أخيرًا هذا السجن حتى لو كان لسويعات قليلة فهذا أمر باعث على السعادة، ركبا النوق، لكل منهم ناقة، جبل متقدم يتبعه شديد، قطعا الصحراء حتى وصلا إلى الطريق السريع، ربطا النوق خلف صخرة عظيمة يرون من خلفها بدايات الطريق ولا يرى المارة ما خلف الصخرة، ترجلا سائرين حتى الطريق السريع، نصف ساعة مرت عليهما واقفين منتظرين سائقًا يوافق على أن يقلهم معه حتى المدينة، الشمس حارقة، لا يتذمر أحد، جبل رجل بالغ، والرجال في عرفهم لا يشتكون وإن أُحرقوا أحياء، أما شديد ففرحة مغادرة الصحراء طغت على إحساسه بقيظ الجو، ساعة مكتملة مرت، وقفت سيارة، ركبا، بعد قليل وصلا المدينة، شديد يتبع عمه في صمت، وهو يملي عينيه من المارة والمحلات والبضائع المعروضة في سوق المدينة، عجيب هو الإنسان يشتاق أحيانا لما يكره إذا أُبعد عنه، معقد هو أكثر من النجوم المصفوفة في السماء بلا ترتيب، لطالما كره شديد زحام المدينة، وها هو اليوم يشتاق إليه، سوق الخضار ممتلئ بالباعة، أصوات مرتفعة متداخلة، كلٌّ يُروج

لسلعته، جبل يسير خلفه شديد بيده أكياسًا مملوءة بأصناف عدة، يتبع عمه في شرود دائم التلفت حوله، فجأة توقف جبل عن السير كمن رأى الشيطان، شديد لا ينظر أمامه، اصطدم بظهر عمه، ألتفت جبل إليه مذعورًا:

-إنت اتعميت يا وِلد؟

صمت الاثنين، لحظة قصيرة مرت، التفت جبل إلى الخلف، أمسك كتف شديد موجها إياه إلى عكس اتجاه سيرهم:

-يلا بينا يا شديد هنعاودوا.

وقع نظر شديد على النقطة خلف جبل، اتسعت عيناه دهشة، تبسم فرحًا، رفع يده الممسكة بأحد الأكياس مشيرًا بأصبعه مخاطبًا عمه

-عمي جبل..عمي وهدان أهو هناك، عم وهدان...يا عم وهداااااان

أطبق جبل بيده على فمه ناظرًا ناحية وهدان، لكن سبق السيف العزل، سمعه وهدان، نظر تجاه الصوت، عشرة أمتار تفصل بينهم، جبل خلف شديد يجذبه وعيناه على وهدان، بلا تردد ما إن رآهم، حتى وضع وهدان يده في جيبه، أخرج سلاحه، في عشرة ثواني كان

قد أستله، أنزل زر الأمان، اتسعت عينا جبل، جذب شديد، شديد لا يفهم، يتقهقر خطوه ويتقدم أخرى، طلقة خرجت سريعة، أسقط جبل نفسه أرضًا، شديد نظر إليه وعاود النظر أمامه تجاه وهدان في ذهول متسمر في مكانه، جبل على ركبتيه حاول جذبه من قدميه، هرج ومرج عم المكان، أقدام مهرولة في كل شبر، صراخ النساء يصم الأذان، يولولْن ويهربْن، بعض الرجال هربوا، البعض يقف بعيدا، رجال في أزياء متشابهة؛ ثلاثة رجال كانوا، هرولوا ناحية وهدان، خمسة عشر ثانية مرت منذ إطلاق الطلقة الأولى، ثانيتين أخرتين، طلقة ثانية خرجت من مسدس وهدان الثابت في مكانه بتحدٍّ، ملامحه لم تتغير، اخترقت ذرات الهواء، لا تُرى الطلقة؛ تُسمع فقط، اللحظات بطيئة، كلٌّ في مكانه، وهدان قابضًا على سلاحه مصوبًا ناحية شديد، جبل أرضًا خلف شديد محاولاً جذبه وشديد لا يتحرك، انتهى صوت الطلقة لحظة قصيرة وسُمع صوت عظام خافت تنكسر استقرت الطلقة في جمجمة شديد بعد أن اخترقت ناصيته، لم يئن، لم يتألم، فقط سقط فوق ظهر عمه، تدحرج من فوقه عندما رفع جبل رأسه الملامسة للأرض، استعد وهدان لطلقة أخرى، سبابته اعتصرت الزناد، ضربه مفاجأة سبقته بلحظة من كعب مسدس خلف رأسه، اهتز، فقد توازنه، خرجت

الطلقة، أصابت أحد الحوائط، نظر جبل إلى ابن أخيه الغارق وجهه في الدماء:

-شديييييييييييييييد...

رجلان من الثلاثة أمسكوا بوهدان، أرغموه أن ينبطح أرضا على بطنه، أشهروا أسلحتهم، كانوا رجال شرطة، ثالثهم هرول تجاه جبل، لمحه، ترك ابن أخيه الصريع، ضاع وسط الزحام، صراخ المخبرين في المارة أبعدهم إلى زوايا الشارع، عشرة دقائق كانت سيارات الشرطة تملأ المكان، فرغ الشارع من الناس والباعة، ترك الجميع بضاعتهم وهربوا بأعمارهم.

يتشدق المرء بعدم خوفه من الموت، وإذا شعر باقترابه منه هرول حتى آخر أنفاسه هاربًا منه، وصل جبل إلى الطريق السريع، مغبرّ الثياب كالح الوجه، استقل أول سيارة قابلته عائدًا إلى أخوته.

(١٨)

بعد الهجرة بخمسة أيام

مازال الجميع هائمين على وجوههم في الحزن، يبحثون عن أي خيط قد يصل بهم إلى قاتل علي، الحزن يغلف كل القلوب والغضب بادٍ على الوجوه، يحتلّ حتى التجاعيد، معقدة هي طبيعتهم وتركيبتهم النفسية، الثأر يولد مترسخًا في أذهانهم، كما يولدون وعيونهم في وجوههم، يموت ألف رجل وهم ينتقمون لموت رجل واحد أفضل من أن يعيشوا بذل اخترعوه إن لم يقتلوا القاتل بأيديهم.

زبيدة أفاقت من غيبوبتها منذ ثلاثة أيام، لكنها لم تنطق بكلام مفهوم حتى الآن، بعض الهمهمات والكلام المتلعثم المختلط بالبكاء، أذن المُؤذن لصلاة المغرب، بعد أن صلى الجميع بلا استثناء فكل من بلغ يُصلي، عادة في الأغلب وليست عبادة، غادر أغلبهم ديوان عمران

obeikan.com

عائدين إلى بيوتهم، لتناول طعام العشاء ثم يعودون بعد صلاة العِشاء، لم يبق سوى عمران ووهدان وطه، وُضع لهم الطعام، راحوا يأكلون على مضض، لا شهوة في الأكل، لكن فقط ليستطيعوا العيش، حتى لا يقتلهم الجوع قبل أن يقتلوا قاتل علي.

أنهوا طعامهم، دخلت عليهم زبيدة تستند إلى ذراع زوجة طه، ألقت السلام، ردوه عليها، أجلسها عمران إلى جواره، هم وهدان إلى الخروج فحتى وإن كانت ابنة عمه وزوجة ابن عمه الآخر فمادامت تحل له لا يجلس معها أو في حضورها... على هذا تربوا، أجلسته بإشارة من يدها ونظرة مترجية، راحت تقص من بين دموعها ما حدث في الطاحونة وما سبقه بخمسة عشر عام، الجمع يسمع، يتعجب، علت اندهاشته، أنهت حكايتها، انتحبت بشدة، اهتز كل جسدها من فرط بكائها، سقطت في جلستها مغشيا عليها، نادى عمران على ابنتاه ليساعدا زوجة طه في حملها، عم الصمت المكان، والعيون تستعر فيها النيران، جلس عمران في مكان جلوس الكبير في وسط الديوان، ابنه وابن أخيه يقفان أمامه بلا حراك، بلا كلام ينتظران حديثه، زال من على وجوههم العجب وحل الغضب، شهوة الدماء لمعت في الأعين.

-سيبكم من زبيده دلوقتي حسابها بعدين معايا، بانت الرؤية ودمنا عيّنادينا، عايزكم تجمعوا الشباب، شباب بس مش عايز كبار وتقلبوا البلد على مهران وأخواته، عرفت دلوقتي ليه سابوا البلد من غير ما حد يدرى ولا ياخد خبر، معاكم شهرين تجيبولي دم مهران، وإن مقدرتوش يبقى دم جبل، وإن مقدرتوش دم حد من عيالهم، حمدان لع كبير وميلزمنيش، لو فات شهرين وملقتوش حد فيهم يبقى يحل دم ولاد عمهم لينا، أقلبوا نواحي البلد وهاتوهم، عايز أشوف دمهم سايل، فتشوا في نواحي ما الحكومة لقت جتت عويضة مقتول أكيد ليه دخل بغيابهم.... (قال عمران)

تقرفص الحزن مبتعدًا في زوايا القلوب، وتصدرت الأنفس الصلابة، وأمل الثأر، وراحوا يتغذون على شهوة الدماء

*****

الساعة الثامنة مساءً.. مكتب العقيد حسام رئيس المباحث

طرق رشدي مُخبر المباحث باب غرفة العقيد حسام طرقات سريعة متعجلة، دخل ما إن أُذن له، أدى التحية العسكرية في عجالة للعقيد حسام والنقيب مصطفى الجالسان على الأريكة يتسامران، أشار له

obeikan.com

حسام بإيماءة من رأسه ردًّا للتحية، كان رشدي هو المخبر السري المكلف من قبل النقيب مصطفى للتجسس على منزل عمران في فترة المساء:

- عندي أخبار حلوه يا باشا!

-قول يا رشدي، خير؟... (قال حسام)

قص عليهم ما دار في ديوان العمرانية، وما قالته زبيده حتى وصل لما قاله عمران لوهدان وطه، قفز مصطفى من مكانه فرحًا:

-برافو عليك يا رشدي برافو! ليك عندي مكافأة حلوة أوي.

-تحت أمر معاليكم يا باشا!

-استني بس يا مصطفى متستعجلش، روح أنت يا رشدي..... (قال حسام)

خرج رشدي بعد أن أدى التحية العسكرية منصرفًا، تناقش الضابطان حول كيفية منع العمرانية من أخذ الثأر، ومحاولة الوصول إلى مهران قبل أن يصلوا إليه، اتفقا على مراقبة كبار رجال العمرانية، وأبرز شبابها على مدار الساعة، ورفع تقرير إلى وزارة الداخلية، حتى يضعوا

obeikan.com

تحت تصرفهم كتيبة أو أكثر حسب الحاجة من الأمن المركزي والأمن العام، وضعوا الخطة سويًّا وأعادوا توزيع رجال الأمن.

خرج مصطفى والحزم يكسو ملامح وجهه، عازمًا على منع تلك الفتنة حتى لو كلفته حياته، كما تعلم في سنين عمره القليلة التي أفناها في خدمة جهاز الشرطة.

obeikan.com

(١٩)

شمس الصحراء حارقة كما العادة، لا تتأثر هي بالبشر وأحزانهم، تصب عليهم لهيبها متى أرادت، وليغضبون أو يتذمرون إن شاءوا؛ فلن ينفعهم غضبهم في شيء ولن تلتفت هي إليه.

وصل جبل إلى إخوته، لم ينتظر حتى تتوقف الناقة، حاول القفز من فوق ظهرها، اشتبك جلبابه في هودجها، سقط على وجهه، من بعيد لمحه مهران وحمدان الجالسان أسفل إحدى الخيام، هرعَا إليه، قبل أن يصلَا كان قد وقف من سقطته يلهث بشدة، صرخ بأعلى صوته

-شديد ماااااااااااات! أتقتل يا مهرااان...

توقف مهران عن هرولته ناحية أخيه، سكت؛ الصدمة ألجمته، اتسعت عيناه وتسارعت أنفاسه، نظر حمدان إليه في عدم فهم، ثم نظر إلى جبل وتوجه إليه...

obeikan.com

-إيه اللي عتقوله ده يا وِلد الكلب، إيه اللي جرى؟؟!!

تغاضى جبل عن سؤاله، توجه إلى مهران الذي سقط على ركبتيه ناظرًا إلى الأرض ودموعه تنساب، أمسك كتفيه، هزه بعنف:

-إنت السبب يا مهران، دم شديد في رقبتك، إنت اللي قتلت ولدك!

-ولداااااااااااااااااااااااي..... (صرخ مهران)

سمعت أم شديد صراخ مهران، تأكدت مما قاله جبل حين صرخ، صرخت بكل ما أوتيت من قوة حنجرة وحبال صوتية، سقطت أرضًا، راحت تهيل الرمال على رأسها، شقت ردائها ولطمت وجهها، حاولت ابنة حمدان منعها، وتهدئتها، لكنها لم تفلح، فيما شاركها باقي النساء ما تفعل.

أمسك حمدان كتفي جبل، أبعده عن أخيه الصارخ الباكي بمرارة:

-فيه إيه يا ولاد الكلب، قولولي عمِلتو ايه من ورايا؟!

-إنت السبب يا مهران، دمه في رقبتك يا اخوي.... (قال جبل)

أمسكه حمدان ثانية، صفعه على وجهه، نظر إلية جبل بغضب، ثم طأطأ رأسه وعيناه تذرف دمعا:

obeikan.com

-أنطق يا وِلد! إيه اللي حوصل؟!

افترش جبل الرمال، راح يقص منفعلاً ما حدث منذ البداية، وما فعله مهران ولم يعرفه هو، وما اتفقا عليه سويًّا وأدى بهم إلى أن يسكنوا الصحراء، حتى وصل الأمر إلى موت شديد.

جبل مفترشًا الأرض باكيًا، مهران على ركبتيه صارخًا مولولاً، حمدان واقفًا بينهما يحاول استيعاب ما سمعه من جبل.

دقيقة... دقيقتين....المشهد متوقف لا يتغير... ثلاثة دقائق:

-يا ولاد الكاااااااااالب جبتلونا العار..... (صرخ حمدان)..

بقدمه ضرب مهران في وجهه أسقطه أرضًا، لم ينظر إليه، أكمل صراخه، انهال بقدميه ويديه ضربًا في جبل، أصاب وجهه، بطنه وصدره، لم يبد أحدهما اعتراضًا على ما يفعله حمدان، كأنهم يُؤمنان أنهما يستحقَّن ذلك، أو لأنهما لم يستفيقا من صدمتهما حتى الآن.

خمسة عشر دقيقة؛ ضرب متواصل من حمدان لمهران وجبل، تعب، أعياه الضرب، جلس أرضًا، ساعة مرت بدون كلام، فقط صراخ النساء، وبكاء مهران وجبل، وصمت حمدان، توقف الصراخ، ولم يتوقف البكاء لكنه أصبح هزيلاً ضعيف الصوت، وقف حمدان، تحدث

obeikan.com

بنبرة آمرة:

-لموا حجاتكم المهمة، هنعاودوا البلد بكرة...

-إيه اللي عتتقوله ده يا اخوي؟..... (قالها جبل متعجبًا)

-اكتموا خالص محدش فيكم ينطق، ولا يفتح حنكه.

-هنروح للموت؟!

-من ميتا عنهرب منيه؟ قتلنا واتقتل من عندينا راجل، واللي حوصل حوصل، والعار دلوقتي راكبنا بخروجنا من البلد، هنعاودوا نعيش بشرفنا أو نموت بكرامة.

كانت نبراته حازمة حاسمة، طأطأ جبل رأسه، ولم ينبس ببنت شفة، أمر حمدان أولاده وأولاد أخوته بأن يجهزوا أسلحة آبائهم الشخصية، فاليوم يوم حمل السلاح.

*****

وهدان مقيدٌ من يديه وقدميه إلى الحائط، واقفًا يده لأعلى تقيده سلسلة ساقطة من السقف، قدميه إلى الحائط تربطهما قيود مثبته في الحائط، وحيدًا بعد أن تم القبض عليه في السوق، أُخذ إلى مركز

obeikan.com

الشرطة، وأُخذت جثة شديد إلى المشرحة، وصل خبر قتل وهدان لشديد إلى العمرانية، في مشهد عجيب استقبلوا الخبر.. النساء تطلقن الزغاريد، وتصرخ الأخريات وتولولّن، ثم تبكي من كانت تصدح بالزغاريد، ثم تعود لفرحتها مرة أخرى، الرجال يسلمون على عمران مباركين له، ومعزيين في آن واحد، يباركون له لأخذ الثأر مبتسمين، ثم في لحظة تتبدل ملامحهم لتزول الابتسامة ويرتسم الأسى بدلاً منها ليعزوه في فقيده.

مشاعر عجيبة وموقف أعجب، هؤلاء قوم يفعلون ما لا يُوصف، يخلطون كل المشاعر معًا بمهارة. كان يحدث هذا في ديوان العمرانية أمام أعين الناظرين المتجمهرين من أهل البلدة غير المتعجبين مما يحدث، كأنه شيء نمطي وطبيعي.

دخل مصطفى على وهدان المقيد المُطرق الرأس مستسلمًا لقيوده، فتح له الحارس الباب، دفعه بعنف، غضب عارم يطل من وجهه، يقطر من كلماته:

-عملتوها بردوه يا وهدان، أخدتوا بالتار؟ وديني وما أعبد ما هتخرج من هنا إلا على المشنقة..

obeikan.com

تبسم وهدان في سخرية ناظرًا إلى مصطفى، ثم نظر إلى الأرض ثانية، اشتاط مصطفى غضبًا، أمسكه من كتفيه:

-رد عليه وأنا بكلمك:

-أعمل اللي انت رايده يا باشا، أنا خلاص مهمتي خولصت، خدت تاري ورفعت راسي وراس ناسي، معيفرقش عندينا الموت، يفرق عندينا التار أو العار.

-انتوا أغبياء! إزاي واحد يضيع حياته، ويعرض نفسه للشنق علشان ياخد بالتار؟ أحنا مهمتنا اننا نجبلكم حقكم ونحميكم.

-التار تارنا يا باشا مش تار الحكومة، الدم بيبقى في رقابينا احنا مش رقابيكم.

-احنا الحكومة احنا اللي نحميكم ده واجبنا..

-انتوا حكومة على عينا وراسنا يا باشا، إلا في التار، طول عمرنا خدامينكم ،ومعنزعلكمش، بس في التار لع، التار تارنا والعار عارنا، مالكوش صالح بيه..

اغتاظ حد المنتهى مصطفى من ردود وهدان عليه، لا يعرف من أين

obeikan.com

جاءوا بهذا المنطق ولا كيف يتكلم بكل هذا الهدوء، وهو المقبل على الإعدام، خرج من الغرفة، توجه إلى مكتب العقيد حسام، نهره حسام حين رآه، استنكر وجوده حتى الآن بداخل المركز، أخبره مصطفى أنه مازال في انتظار وصول الدعم، دقائق وقام بالدخول عليهم الرائد علاء ضابط الأمن المركزي، أدى التحية العسكرية للعقيد حسام وسلم على مصطفى يدًا بيد، أخبره أن التشكيل جاهز، أمرهم حسام بالتوجه إلى القرية حالاً، والسيطرة على جميع مخارجها ومداخلها، استأذنا في الانصراف فأذن لهما.

خرج مصطفى وعلاء من مركز الشرطة، ركب مصطفى سيارته الرسمية "البوكس" وركب علاء مدرعة الأمن المركزي، ترأَّسَا قوة كبيرة مكونة من ثلاث مدرعات أمن مركزي، ثلاث سيارات شرطة، شاحنة نقل جنود كبيرة، ثلاثة ضباط من إدارة المباحث العامة بالإضافة إلى مصطفى وعشر أمناء شرطة، وضابط أمن مركزي مع علاء، وخمسين جنديًّا من قطاع الأمن المركزي، تحركوا متجهين إلى القرية، نصف ساعة في الطريق ثم وصلوا.

للشرطة هيبتها حتى في قلوب القتلة، دخلت المدرعات البلدة، على

obeikan.com

مشارفها ينتظرهم المخبرين الذين أرشدوهم إلى ديوان العمرانية، شباب العمرانية يقفون أمام الديوان في وسطهم عمران كلٌّ ممسكا بسلاحه، أسلحة متعددة، طبنجات، أسلحة آلية، بنادق خرطوش، أسلحة من كل الأشكال والأحجام، هبط ضباط المباحث قبل توقف السيارات تمامًا، أتبعهم ضباط الأمن المركزي وجنودهم، أطلق مصطفى تسعة أعيرة نارية في الهواء، أفرغ خزانته، بدلها بدون أن يتوقف، في لحظات كانت كل القوى على الأرض، هاجم الجنود الشباب المسلح، قبضوا على كل من يمسك سلاحًا ونزعوه منه، استسلم الشباب لهم في لا مبالاة، أمر مصطفى رجاله بتفتيش جميع منازل العمرانية، وجدوا العديد من الأسلحة الأخرى، تم تحريز ثمانين قطعة سلاح متنوعة، ومئات من الطلقات النارية، فتشوا كل المنازل، قبضوا على كل من وجدوا لديه سلاحًا، توجهوا إلى منازل حمدان وأخوته، كانت فارغة من قاطنيها حتى من اشتراها لم يسكنها بعد، طريق واسع يفصل بالعرض بين منازل آل عمران ومنازل آل حمدان، تمركزت فيه الشرطة برجالها ومدرعاتها، القرية كلها تلزم مساكنها، توجه الشيخ ربيع إلى مصطفى، سأله إن كان يحتاج إلى شيء، شكره مصطفى، أخبره أنه يعلم أنه أكثر أهل القرية حكمة، ويريد مساعدته في إنهاء

هذا الأمر

-نخلصوا أيه يا باشا؟ طرف واحد الموجود، والتاني منعرفش مكانه؟

-هيظهروا متخافش يا شيخ ربيع، أحنا قالبين الدنيا عليهم وهنجبهم.

-ربنا يسترها يا باشا، الدم آخرته دم.. عمر ما كان آخرته صلح..

تنهد مصطفى وصمت، ابتسم له الشيخ ربيع، ربت على كتفيه، دعا له ثم رحل، جلس مصطفى وعلاء بجوار القوات، أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث، تعاهدوا فيما بينهم أنهم لن يسمحوا بإهدار دم أحد مرة أخرى، لن يُقتل شخص آخر، سيعاقب المخطئ بالقانون، سننهي الثأر، أقسموا على أن يحموا أهل القرية الأبرياء الذين لا دخل لهم بهذا الأمر، وأن يطبق القانون على الجميع.

opelkan.com

(١٩)

بداية النهاية

في اليوم التالي يا مولاي إبليس المعظم غادر الأخوة الثلاث ونسائهم الصحراء بعد أن جمعوا حاجياتهم المهمة فقط، التوتر يعصف بقلوبهم جميعًا، بادٍ على الوجوه عدا حمدان الرابط الجأش الذي يكاد أن يموت رعبًا من داخله..

استأذنتُ في هذا الوقت قداسة مجلس الشياطين الأعلى في التماس سريع أن يسمح لي بمغادرة منفاي الصحراوي، وأن أذهب خلفهم كي أقيم مكائدي، وأحرص على تأجيج الفتنة، وأن تبقى مشتعلة، أُذن لي بالذهاب شريطة ألا أذهب إلى مكان آخر غير قرية الأخوة، وقد كان.

سبق الجميع جبل لبداية الطريق، أوقف سيارة لتنتظر القادمين من إخوته ونسائهم والأولاد، ترك عابد ابن حمدان مع السائق في انتظار

obeikan.com

العائلة ليركبوا السيارة وينطلقوا عائدين إلى القرية لكن لا يدخلوها، أمر عابد أن يُخبر والده بأنهم لا يدخلوا القرية وينتظرونه على بداية الطريق المؤدي إلى القرية، حتى يأتي ولا يدخلون منفردين، تركه وذهب في سيارة أخرى، حتى وصل إلى القرية، تسلل إلى داخل القرية متخفيًا حتى يطالع ما يحدث فيها، ويقف على الأمر وحقيقته، كي يكونوا على أتم استعداد، وجد ما توقعه من رجال شرطة وقوات واحتراز أمني ورجال مدججين بالسلاح في انتظار أي طارئ.

خرج من القرية، ذهب إلى البنك الذي كان قد أودع أمواله وأخوته به، سحب كل الأموال دفعة واحدة، ركب متوجهًا إلى القرية مرة أخرى، على بداية الطريق الداخل إلى القرية وجد أخوته في انتظاره، أخبر حمدان ومهران بما عرف ورأى بنفسه، لم يتفاجأ حمدان، أومأ برأسه متفهمًا وصمت مفكرًا، ارتعدت فرائص مهران وخرج صوته مرتعشًا جبانًا:

-أهرب يا أخوي ولا أعمل إية؟

هنا تسللت مسرعًا يا مولاي إلى أذن حمدان موسوسًا إليه بألا يدع مهران يهرب، وأنه يجب أن يسلم نفسه إلى الشرطة، فليس هناك مكان

أأمن عليه من حضن الشرطة، وليس عليه أن يخاف من شيء، فليس هناك أي دليل مادي يقنع الشرطة بأنه هو قاتل علي، كل ما عليه فعله أثناء التحقيق أن ينكر أي معرفة له بمقتل علي، ولن يلبث حتى يطلقون سراحة..

-ولماذا فعلت ذلك؟..... (قال إبليس)

-يا مولاي! إن هرب مهران فسيختفي في أي بلد بعيدة، أو حتى يغادر البلاد إلى خارجها نهائيًّا، وتكون الفتنة قد ماتت، قتيلٌ بقتيل ورأس برأس ويتم الصلح، لكن إن سلم نفسه ثم بعد وقت طال أو قصر خرج لعدم كفاية الأدلة ضده، سيشتعل الأمر ثانية، ما إن يراه العمرانية حتى يتجدد الكره بصدورهم، وتتأجج النار في قلوبهم مرة أخرى وإن خمدت قليلاً.

-ها ها ها ها ها ها أحسنت يا قائد الشياطين، أكمل.

بالفعل يا مولاي فعل حمدان ما وسوست به إليه، واقتنع مهران أن يسلم نفسه إلى الشرطة، تركوا السيارة وأكملوا ما بقى سيرًا، الرجال في المقدمة، خلفهم أولادهم، وفي المؤخرة النساء، خطواتهم واثقة لا تحيد، إصرار يطل من العيون، برهة وكانوا بداخل القرية، العيون

تحوطهم متعجبة مذهولة من عودتهم، لكن لا أحد يقترب منهم أو يكلمهم، يمرون على الجالسين فيقفون ينظرون ولا يتكلمون، يتوقف المارة وينظرون، يقابلون هم النظرات بنظرات أكثر حدةُ ترهب من ينظر وإن كانت نظرته بريئة، تحجرت القلوب من عظم المصيبة فما عادت تبالي بشيء، أيديهم تلامس أسلحتهم في جيوبهم متحفزة والقلوب أكثر تحفزًا، وصلوا إلى مكان تمركز القوات، مصطفى يجلس على كرسيٍّ بجوار علاء يتسامران في ضجرٍ واضحٍ على ملامحهما، نساء الأخوة توقفن من تلقاء أنفسهن دون أن يأمرهن أحد بذلك، الرجال استمروا في تقدمهم خلفهم أولادهم الذكور، رآهم مصطفى قادمين، هب من جلسته واقفًا متعجبا، توقع قدومهم لكن ليس بهذه السرعة، تسمر في مكانه ثانيتين كأنه يحاول التأكد من أن القادمين هم حمدان وأخوته، نفض شروده وتعجبه، أشار إلى بعض الجنود الواقفين بلا أي تأثر، فهم لا يعرفون القادمين كما يعرفهم مصطفى -أمسكوهم.

هرع الجنود ناحيتهم بلا تردد، شهروا أسلحتهم في وجوههم، أمروهم بالتوقف، توقفوا... من خلف فوهات البنادق المرفوعة تكلم حمدان

مخاطبًا مصطفى:

-ملوش عازة اللي عيحصُل ده يا موصطفى بيه، إحنا اللي ميت من عندينا واحد مش متهمين في حاجة، ميصحش أكده.

توجه مصطفى إليهم، تفحصهم بنظراته وهو يدور حولهم، أشار إلى مهران، أمر الجنود باقتياده إلى سيارة الشرطة، ذهب مهران بلا تردد، ونظراته معلقة بحمدان الذي أومأ برأسه في محاولة لطمأنته، نظر مصطفى إلى حمدان:

-ناويين على إيه يا حاج حمدان

-اللي يعمله ربنا هيكون يا باشا، ولا انت مش مؤمن بالله؟

-الحقيقة أنا مؤمن بالله، ومؤمن أنه حرم القتل والدم، ولا أنت متعرفش الموضوع ده؟ ... (قال وهو يضع يده على كتف حمدان)

-أعرفه يا باشا بس اعرف بردوه أنه حلل القصاص يا باشا... قالها وهو يتحدى نظرات مصطفى واضعًا عينه بعينه في تحدٍّ:

-يعني إيه يا حمدان؟

-ولا حاجة يا بيه، حريمنا معانا تسمح نروحوا بيوتنا، ولا هنقف النهار

obeikan.com

كله أكده؟

-فين بيوتكم دي يا حمدان؟ أنتوا بعتوها ولا نسيت؟

-لع فاكر، وهنردوها، ما تشغلش فكرك بالصغاير دي يا باشا.

نظر إليه مصطفى نظرة طويلة، ثم سمح لهم بالذهاب، وصلوا إلى بيوتهم، دخلوها عنوة، استقروا بداخلها، أرسل جبل إلى من اشترى بيوتهم وعندما جاء إليه أعاد له أمواله، أخذها المشتري دون اعتراض، دون تردد، وفي نفسه حمد الله أنه أعادها له، تغيرت الأمور والوقت وقت حرب، وفي الحرب أقرب الخسائر تعد مكسبًا، أخذ أمواله ثم ذهب.

في المساء جمع حمدان أولاد عمومته، وأكابر عائلته في ديوانه الخاص، جاءوا على مضضٍ مستاءين مما حدث، اجتمع بداخل الديوان كبار العائلة، وبخارجه تعسكر الشباب حول أبوابه، ونوافذه المغلقة كي يتأكدوا أن لا غريب يسمع ما يُدار، وما يُحاك بالداخل من العمرانية، أو من رجال الشرطة حتى،.

حاول حمدان في بداية كلامه أن يمتص غضب أهله، لكنه لم يفلح،

obeikan.com

انفجر فيه الجميع دفعة واحدة شاتمين له منددين بفعلته، علت الأصوات، تداخلت الكلمات، الكل يتحدث في نفس الوقت بنفس الانفعال، اضطر أن يصمت ويسمع دون أن يقاطع أحدًا، تناوب الرجال الكلام كلٌّ منددًا بفعلته، معترضًا بطريقته الخاصة، تحمل إهانتهم وسبهم لفعلته، ظل صامتًا حتى انتهى الجميع من قول ما لديه، نظر إليهم، تفحصهم جميعًا، أمسك مصحفًا كان أمامه على المنضدة، أقسم حالفًا أنه لن يكذب في أي كلمة مما سيروي، صدقه الجميع قبل أن يسمعوا منه شيئًا.

في عرفهم يكذب المرء كيفما يشاء إلا إذا أقسم بكلام الله، كان مُصدقًا حتى وإن كذب، أخبرهم بما حدث منذ البداية، وما كان من فعلة مهران وتدابير جبل، وما حدث بالكامل دون أن يترك حتى أدق التفاصيل إلا وقصَّها على مسامعهم، ثار الجميع ما إن انتهى من كلامه، تعجبوا من فعلة مهران، تلفظوا بكلمات نابية ساخطين عليه، وعلى فعلته النكراء التي تلبسهم ثوب العار، عار أكبر وأعظم من عار قتل شديد ولده، ظلوا يتجاذبون أطراف الحديث المنفعل طيلة ثلاث ساعات، قبل أن يطلب منهم حمدان أن يصمتوا ويستسلموا للأمر

الواقع الذي لا فكاك منه، وأن يشيروا عليه بما يجب فعله.

تباينت الآراء واختلفوا فيما بينهم؛ هل يساعدون أولاد عمومتهم ويقفون بجانبهم؟ أم أنهم لا يستحقون ذلك؟ ظل السجال طويلاً بينهم، استقروا بعد ساعة أخرى من المداولة على أن يقفوا يدًا واحدة، حتى ينتهي ما هم فيه، ويأتي بعدها وقت حساب مهران وجبل إن كانوا مازالوا أحياء.

خرج الجميع من الديوان ليفاجئوا بسيارات الشرطة تأتي مسرعة لتتوقف أمام الديوان، هبط مصطفى ومعه قوة كبيرة، دخلوا إلى الديوان بعنف واضح دون أن يعترض أحد، قاموا بالقبض على حمدان وجبل في نفس اللحظة التي كان فيها حسام يترأس قوة أخرى ويقبض على عمران وطه، تم تفتيش جميع المنازل التي دخلوها، حرزوا كل ما وجدوه من أسلحة غير مرخصة في محاولة منهم لتجفيف مصادرهم من السلاح، فهذا تكنيك معمول به من قبل الشرطة في مثل تلك الحالات، تم اقتياد الجميع إلى مركز الشرطة، وُضع حمدان وجبل في غرفة محجوز بها مهران، وعمران وطه في الغرفة المقيد بها وهدان، أغلقت الأبواب وظلوا بلا مساس حتى الصباح.

obeikan.com

(٢١)

دخل جبل وحمدان غرفة الحجز، ليجدا مهران أمامهما، غرفة خالية تحتوي على اللاشيء عدا أرضيتها الخالية من أي غطاء لها، وبعض القيود الحديدية المثبتة بالحائط، ولمبة صفراء وحيدة تتدلى من منتصف سقف الغرفة، هرول مهران إليهما، اقترب منه جبل وانزوى حمدان بعيدًا في أحد أركان الغرفة، سأل جبل عما حدث بقلق بادٍ جعل صوته يخرج متحشرجًا، طمأنه جبل، قصَّ له ما حدث في الديوان منذ قليل، وما وصلوا إليه مع باقي العائلة، أطمئن قليلاً وهدئ روعه بعض الشيء، نظر ناحية حمدان:

-أيه يا اخوي، معتكلمنيش وبعدت عني أول ما جيت ناحيتك، خلاص كرهتني؟

نظر إليه حمدان نظرة غضب، وفي طرفة عين كان قد نزع حذاءه من

قدمه، وألقاه ناحية مهران ضاربًا إياه به في حركة عصبية:

-أكتم خالص! معايزش أسمع حسَّك.

أمسك مهران حذاء حمدان، توجه ناحيته، جلس على ركبتيه، وأمسك بقدم حمدان وألبسه حذائه، وسط نظرات حمدان اللا مبالية:

-هتفضل كبيرنا، ولازم نطاوعك في كل حديتك، ونقبل منيك أي حاجة..

-وكان فين الكبير ده لما عملت عملتك يا مهران؟

-كانت غلطة يا أخوي، ساعة شيطان!

-شيطان!! الشيطان بريء من عمايلك يا أخوي، إنت غلبت الشيطان باللي عملته.

-والله ما أعرف كيف ده حوصل، كإني كنت بحلم ومكنتش في وعيي..

-ليه كنت سكران ياااااااا.... يا أبو شديد؟؟

امتعض وجه مهران، انفجرت مقلتيه بالدموع بلا صوت، طأطأ رأسه وسكت مبتعدًا:

opeikan.com

-ملوش عازه الحديت ده دلوقيت يا حمدان.... (قال جبل)

-أنت تكتم خالص أنت كمان، حسابنا بعدين لما نخلصوا من الهم ده، لو خلصنا، اتخمدوا ناموا، محدش عارف الحكومة عايزه منينا إيه.

سكت الجميع فجأة كمحرك سيارة نفد وقودها، استلم كل منهم أحد أركان الغرفة منفردًا واستسلموا لسلطان نوم عزيز تأخر في مجيئه، لكنه جاء في النهاية.

*****

رافق حسام عمران وطه حتى باب الغرفة المقيد بها وهدان، كانت غرفة مشابهة لغرفة مهران كأنهما نسختان متطابقتين، أدخلهما، أمر أحد العساكر بأن يحرر وهدان من قيوده، نظر إلى عمران نظرة ثاقبة:

-لينا كلام الصبح يا حاج عمران!

رد عمران بابتسامة باهتة، خرج حسام ومعه العسكري، أوصد الباب بإحكام، توجه وهدان ناحية عمران، صافحه، قبل يده ثم وضعها على جبينه:

-كيفك يا عمي؟

obeikan.com

-بخير يا ولدي، بخير يا رافع راسنا.... (قالها وهو يمسك برأس وهدان ويقبلها)

ابتعد وهدان سريعًا مذعورًا إلى الخلف كمن لُدغ:

-العفو يا عمي! الدم دمي، ومعملتش غير الأصول.

-متخافش يا وهدان من حاجة، كلنا في ضهرك ومش هنسيبك.

-الخوف كان من العار يا عمي، وبعد ما جبت حق ولد عمي اللي مات وخدت بتاره مبقاش في خوف..

ربَّت عمران على كتفه وعلى وجهه ابتسامة رضا:

-اللي خلف مماتش يا وهدان، راجل من ضهر راجل

-وتربية سيد الرجال يا عمي.... (في إشارة إليه)

الغرفة لا أثاث بها ولا فراش في أرضيتها، خلع طه جلبابه، فرشه أسفل قدم والده، أشار إليه في أدب:

-أتفضل يا أبوي أقعد!

في تلقائية من لم يستهجن الفعل، كأنه اعتاد عليه جلس عمران،

obeikan.com

افترش جلباب طه، وجلس طه ووهدان بعده على الأرض في مواجهته، راحوا يتسامرون طيلة الليل، وضحكاتهم تخرج حثيثًا، الحزن ينزاح عن قلوبهم رويدًا رويدًا، يبتعد الحزن متمهلا حين يُؤخذ بالثأر، ليحل محله الإحساس بالكرامة والشعور بالفخر.

*****

اجتمع مصطفى مع العقيد حسام في غرفة العمليات التي أوصى حسام بفتحها إبان مقتل شديد كي تكون مركز تخطيط وانطلاق لهم، غرفة واسعة تحتوي على منضدة كبيرة تراصت عليها أربع شاشات تعرض ما تنقله الكاميرات، حولها ستة كراسٍ ومكتب صغير عليه بعض الملفات، جلسا يتابعان معًا ما تنقله الكاميرات السرية المثبتة في الغرف المسجون بها أعضاء الفريقين المتناحرين، كان مصطفى قد اتفق مع حسام على هذا قبل الخروج للقبض عليهم كي يتسنى لهم الاستماع إلى الأحاديث الخفية بينهم وبين بعضهم البعض، محاولين الخروج بأكبر قدر من المعلومات التي يستطيعون الحصول عليها من تلك المعلومات التي لن تُقال في التحقيقات، ولن يسمعها إلا هم من بعضهم.

كانا يعلمان مسبقًا أن التحقيقات لن تُسفر عن أي جديد، ولن تصل

بهم إلى أكثر مما هم فيه الآن، لن تكشف لهم نوايا الفريقين، يعلمان أنهم سينكرون كل شيء، سينكرون أنهم سيأخذون بالثأر، وسيخفون نواياهم، وحده قاتل شديد سيعترف بفخر؛ ففي معتقدهم هذا باعث على الفخر، وليس عار يختبئون منه، قضايا الثأر الجهات التنفيذية والقضائية والتشريعية فيها هم الأهالي أنفسهم، في هذه الحالات هم الشرع وليس الشرطة، يرون الحادثة، يُصدرون الحكم، يُنفذونه، فقط بهذه البساطة.

لهم فلسفتهم الخاصة؛ القاتل يقتل بأيديهم هم وليس بيد القانون، من يترك ثأره للشرطة يرتدي عباءة العار طيلة حياته، ويورثه لذريته عند وفاته.

جلس الضابطان يراقبان ما يحدث في الغرف وتنقله الكاميرات، يستمعان، يترقبان عسى أن تقع مسامعهما على كلمة تنبههما لما سيحدث، لكن خاب ظنهما، ولم يسمعا إلا ثرثارات فارغة لا قيمة لها، وكأن من بالغرف على علم بتلك الكاميرات التي زُرعت.

*****

التاسعة صباحا....

فتح مصطفى باب الغرفة المسجون بها آل حمدان، كانوا قد استيقظوا من نوم لم ينامونه، أشار إلى مهران:

-تعالى يا مهران!

قام مهران من جلسته متثائبًا بطيئًا، عدَّل هندامه، مسح على عينيه بكفيه:

-على فين يا باشا؟

-وكيل النيابة عايزك يلا انت هترغي معايا.

خطى كأنه لم يسمع الجملة الأخيرة، لم يتأثر، برود مشاعر أحاط بتصرفاته، سيطر على ملامحه وحركاته، توجه إليه، أمسكه أحد الأمناء المصاحبين لمصطفى، وضع القيود في يده، اقتاده إلى غرفة وكيل النيابة بآخر الردهة، استأذن مصطفى في الدخول فأُذن له، أمسك مهران، دفعه إلى الداخل ببعض القسوة، غرفة واسعة، نظيفة بعناية كأنها غرفة عناية مركزة بمستشفى خاص، مكتب أمامه كرسيان وخلفه بعض اللوحات ذات الذوق الرديء، تلك اللوحات التي تحتوي

obeikan.com

على رسمه بحر من مصر وأشجار من باريس وشروق شمس لا يحدث إلا في سيبريا، تتوسط الحائط صورة عريضة لرئيس الجمهورية، يجلس على رأس المكتب وكيل النيابة ببذلته الرسمية ورباطة عنقه المربوطة بتمهل وحرفية، توجه مصطفى إلى وكيل النيابة أشرف الرافعي، صافحه بحرارة، قدم إليه مهران...

-مهران يا أشرف باشا المتهم بقتل علي:

نظر إليه أشرف نظرة مطولة، ثابت مهران كمسمار من صلب، ثُبت في حائط داخلي لمنزل مهجور:

-اسمك وسنك

-مهران ربيع جبل حمدان، خمسة وتلاتين سنة.

-بتشتغل إيه يا مهران؟

-فلاح يا باشا.

-ما قولك في ما هو منسوب إليك؟

-لا مؤاخذة يا باشا مفهمش حديتك.

-إية ردك على التهمة؟

obeikan.com

-تهمة أيه يا باشا كفا الله الشر؟

-انت هتستعبط بروح أمك..... (قالها مصطفى صارخًا)

نظر إلية مهران نظرة غضب مشتعل

-لو سمحت يا باشا! إثبت شتيمة موصطفى باشا دي في المحضر، علشان هرفع قضية سب وقذف عليه.

-بتقول إيه يلا؟ هترفع قضية عليه أنا!!

-أثبت دي كمان يا باشا بعد أذنـك.... (قالها دون أن ينظر إلى مصطفى)

-إهدى يا مصطفى بيه لو سمحت شوية، وأنت رد عليه كويس، إيه ردك على تهمة قتلك علي عمران؟

-معردش يا بيه إلا لما تثبت شتيمة الباشا في المحضر

-هاثبتلك اللي انت عايزة، انطق وخلصني..

-محصلش يا باشا مقتلتش حد.

-امال ليه سبتوا البلد، ومشيتوا أنت واخواتك؟

obeikan.com

-هي الحكومة عتمنع الناس يسافروا ولا اية يا بية؟ أحنا أحرار

-طيب بلاش دي، ليه وهدان قتل شديد ابنك؟

-أسأله هو يا بيه، ولدي هو القتيل مش القاتل.. (قال بتأثر وصوت منخفض كالهمس)..

-انتوا عايزين تاخدوا بالتار ولا اية يا مهران؟

-.....

-ما تنطق ساكت ليه؟؟

-اللي يعمله ربنا يكون يا باشا، محدش عارف بكرة مخبي إيه

نظر أشرف إلى مصطفى نظرة يأس:

-أقفل المحضر على ذلك في ساعته وتاريخه... رجعه يا مصطفى بيه

أمسك مصطفى مهران بعنف بالغ، أخرجه من الغرفة، توجها ثانية إلى غرفة حبسه:

-وحياة أمك ما هسيبك يا مهران.

-لو عرفت تعمل حاجه اعملها يا باشا.

obeikan.com

أعاده مصطفى إلى محبسه ثانية، والغضب يملأ أركانه، توجه إلى مقر حبس آل عمران، فتح الباب بغضب بالغ، أمسك وهدان من كتفه بعنف، اقتاده إلى خارج الغرفة، وضع العسكري القيد في يديه، استسلم له وهدان مبتسما، اقتاده إلى غرفة التحقيق:

-بالراحة يا موصطفى باشا أنا جاي معاك...

-يا أنا يا أنتوا يا وهدان..

-يبقى احنا يا باشا، الأرض أرضينا، والبلد بلدنا، وأنت الضيف فيها..

كانا قد وصلا إلى الغرفة، استأذن مصطفى فأُذن له، دخل غاضبًا، وقف وهدان مبتسمًا:

-وهدان يا أشرف بيه..

-إسمك وسنك؟؟

-وهدان متولي وهدان، أتنين وتلاتين سنة..

-بتشتغل أيه يا وهدان؟؟

-فلاح..

-ليه قتلت شديد أبن مهران يا وهدان؟

obeikan.com

-خدت بتار علي ولد عمي اللي قتله مهران..

-بس مهران أنكر انه قتل علي..

-ملناش صالح بحديته، الكل عارف مين اللي قتل علي، وانتوا كمان عارفين..

-بس مفيش دليل على كده..

-احنا معيزينش دليل، الدليل ده ليكم انتوا يا بيه...

-امال انتوا بتحتاجوا ايه بقى يا وهدان؟؟ (سأل ساخرًا)

-سلاح وطلقاته ودم قصاد دم..

-هي عافية يا وهدان ولا غابة؟؟

-عمر ما كان الحق عيب يا بيه..

-إحنا نجبلكم حقكم، مش تاخدوه انتوا بإيديكم

-ممكن أعرف يا بيه أنت عايز مني إيه؟ أنا اعترفتلك بقتله خلاص، ملوش عازه كتر الحديت..

-عندك حق! بس أنت عارف أنك كده هتتعدم؟

opeikan.com

-كلنا هنموت يا بيه! أنا هموت وأنت هتموت، أنت هتتنسي بعد كام سنة، وأنا اسمي هيفضل عايش وسط أهلي وناسي، وهما رافعين راسهم، بسبب حقهم اللي انا جبته، وبعدين مين قال أني هتعدم؟ هو أنت يا باشا عارف الغيب؟ ربنا وحده العالم بالغيب.

نظر إلية وكيل النيابة بغضب، أُقفل المحضر، أعاده مصطفى ثانية إلى حجزه.

قص كلًا من مهران ووهدان لذويهم ما حدث معهما أثناء التحقيق وما قالا وما قيل لهما، كانت الأمور تسير وفق ترتيبات كل منهم على حدة.

*****

الحادية عشر صباحًا....

اجتمع مصطفى مع حسام في مكتب الأخير ليناقشا آخر الأوضاع، وما آلت إلية الأمور، قصَّ مصطفى على مسامعه ما حدث في غرفة التحقيق، وما قاله وهدان، وما أنكره مهران، نقل مصطفى إلى حسام تعجبه من الأمر؛ وهدان ومهران كلاهما قاتل، لكن أحدهما يتبرأ من فعلته وينكرها والآخر يعترف بها ويفتخر، رغم أن الاثنان نفس النشأة

تقريبًا ونفس التربية، بيئتهما المحيطة واحدة وعاداتهما واحدة.

أخبره حسام أن هذا غير ذاك، القتل لا يختلف عليه أحد أنه جريمة شنعاء، ينكرها الدين والمجتمع وحتى العرف القبلي، لكن هذا بالنسبة لمن يبدأ بالقتل، لمن يسرق مثلاً ويقتل ضحيته أو يقتل لأي سبب آخر، أما القتل بغية الثأر فهذا أمر مختلف؛ هو مفخرة وواجب، يتبرءون من الأول، ويتمسكون بالثاني ويتفاخرون به

-طيب والحل يا باشا؟ مفيش سبب ولا سند قانوني يخلينا نحتجز عمران وابنه ولا حتى حمدان واخواته أكتر من كده، هنخرجهم ونسيب الدنيا تولع؟ ومهران ممكن نسيبه شوية، بس دلوقتي أو بعدين هيخرج، لأنه مفيش دليل عليه لو أحنا احتجزناه النيابة هتخرجه.

-شكلها كده يا مصطفى حلها معاد...

-معاد أيه مش فاهم ساعدتك....

حكى له حسام عن ما يسمى "معاد"، هو أشبه باجتماع يجتمع فيه المتخاصمين، يدلي كلام منهم بدلوه ويحكي قصته، ويكون هناك بعض الأشخاص؛ شخص واحد أو أكثر يقومون بدور الحَكَم فيما يُسرد من قبل المتخاصمين، ولابد أن يكونوا من خارج العائلتين المتناحرتين

كي تضمن نزاهتهم وحياديتهم، وهذا يسمى جلسة تصالح عرفية، وفي اللغة الدارجة معاد أو جلسة قضاء.

-بس ده مش قانوني!!

-هو مفيش شيء في القانون يمنعه أو يؤيده، بس هو الحل الوحيد اللي هينفع، أحنا ممكن نحبس القاتل، بس مش هنقدر نقبض على العيلة كلها، وفي حالة التار كل فرد في العيلة قاتل محتمل أو قتيل محتمل، فالأفضل إننا نحاول نوقع الصلح بينهم وننهي الموضوع كله.

-بس دي مش مهمة الشرطة يا فندم!!

-الشرطة مهمتها حماية المواطنين يا مصطفى حتى من نفسهم، حمايتهم بكل الطرق المتاحة، أحنا هنعمل اللي علينا والباقي على ربنا، عايزك تجيب الشيخ ربيع هنا..

-ليه يا فندم؟

-هو اللي هيحل الموضوع ده معانا..

-حاضر، حالاً يا فندم

*****

obeikan.com

الواحدة بعد الظهر....

دلف مصطفى إلى مكتب حسام وخلفه الشيخ ربيع، نهض حسام من خلف مكتبه متوجهًا إلى الشيخ ربيع مصافحًا إياه بحرارة مع قبلات على الخدين، رفض الجلوس خلف مكتبة ثانية، جلس ثلاثتهم على أريكتين متلاصقتين للاستقبال، أخذوا يتكلمون في بعض الأمور العامة، ويلقون بعض النكات السمجة التي يشتهر بها كبار السن، نكاتهم ليست مضحكة بل مملة، وليست نكات من الأساس، لكن الضحك بسببها إجباري كي لا يغضبون، مرت خمسة عشر دقيقة على هذا الحال، ثم عم الصمت، نفد الكلام وانتهت المداعبات والمجاملات، صمت مطبق أنهاه حسام، أخبر الشيخ ربيع بما أراد، قال له إنه يريده أن يترأس جلسة صلح عرفية بين آل عمران وآل حمدان، رحب الشيخ ربيع بالفكرة مهللًا لها ووافق على الفور على مقترح العقيد حسام.

-بس لازم هما يوافقوا يا باشا!

-حتى لو موافقوش بالذوق، هيوافقوا بالعافية، أنا عايز أخلص من الموضوع ده يا شيخ ربيع!

openkan.com

-على الله ياباشا... على الله!

أرسل العقيد حسام أربعة من أمناء الشرطة ليأتوا بحمدان وعمران من مكان احتجازهما كي ينضمَّا إليهم، جاء حمدان أولاً، أدخله الأمين، سلَّم على العقيد حسام، والشيخ ربيع ثم جلس، برهة قصيرة ودخل عمران، تفحَّص الحاضرين بنظره، رأى حمدان، امتعض وجهه، تسمر مكانه لم يتقدم:

-السلام على اللي يستاهله:

رد حسام وربيع السلام، فيما نظر إليه حمدان بلا أي تعبير على وجهه، دعاه حسام للجلوس فجلس في مقابل حمدان، على يساره الشيخ ربيع، وعلى يمين حمدان العقيد حسام.

بدء حسام الحديث محاولاً الاعتذار لهما ضمنيًّا وليس صراحة، وشرح أسباب إحضارهما إلى هنا، وأنه لم يتعمد إهانتهما، لكنه رغب في تجميعهما حتى يجلسون هذه الجلسة الكائنة الآن، ويحاولون حل الموضوع بالتراضي، لأنه لن يسمح بدماء أخرى في القرية.

استلم طرف الحديث من حسام الشيخ ربيع:

obeikan.com

-بكفيانا دم بقى يا خلق، راح شاب كان زينة الشباب، وراح عيل أصغير، ملوش ذنب في حاجة، إحنا هنقعد معاد، وهاحكم أنا فيه بحضور حسام بيه، واللي لسة ليه حق هياخده، إيه رأيكم؟؟؟

صمت الجميع، لم يرد أي من الطرفين، ربيع وحسام يوزعان نظراتهما إليهما:

-إيه رأيك يا حج حمدان.... (قال حسام)

-اللي عتشوفه يا بيه.

-أيه رأيك يا حج عمران..... (قال ربيع)

-من ميتا العمرانية عيقعدوا في مواعيد يا ربيع؟

-يعني إيه يا عمران؟ إنت فاكر نفسك إيه الحاكم بأمر الله؟ علشان نبقى واضحين وتبقى فاهم مفيش غير حلين، المعاد، أو أنكم هتقعدوا هنا منورين سنة أو اتنين أو تلاتة المركز كبير، وكل العمرانية والحمدانية مش هسيبهم في حالهم، وأقسم بالله الطلقة اللي هتضرب هيكون حسابها عسير.... (قال حسام منفعلاً)

عمَّ الصمت المكان، راح ربيع وحسام بعد أن هدأ روعه يحاولان إقناع

obeikan.com

عمران بالأمر، كان عمران يُضمر الشر، أراد رأس مهران ولم يكتف بقتل شديد، حاولا إقناعه، تارة يرهبه حسام، وتارة يرغبه ربيع بحسن الجزاء عند الله، حمدان جالس مستمع فقط، يعلم أنه هو الرابح من هذا الأمر، إذا توقف نهر الدم الجاري الذي فتح مصبه أخوه، فوافق على الفور، بعد محاولات مريرة وحوالي ساعة من الزمن وافق عمران على الأمر.

تنفس حسام الصعداء، أمر مصطفى الذي كان يجلس منذ البداية، في ركن الغرفة منصتا بشغف بأن يخلي سبيل الجميع عدا مهران ووهدان...

اتفقوا على أن تكون الجلسة بعد يومين من هذه اللحظة:

*****

الساعة الثالثة عصرًا....

الجميع خارج مركز الشرطة، يرافقهم حسام ومصطفى، توجه كلٌّ إلى منزله، وعاد حسام إلى مكتبة راجيًا أن يكون الأمر على وشك الانتهاء، بينما توجه مصطفى إلى القرية ليطالع آخر المستجدات الأمنية.

(٢٢)

اليوم التالي بعد الاتفاق

بعد أن خرجوا من مركز الشرطة عصرًا ذهب كلٌّ إلى منزله (آل عمران وآل حمدان)، جاءت الحشود العائلية للاطمئنان على ذويهم، والجلوس للمشاورات ومعرفة ما حدث، أُخبر كل الأطراف من قبل ذويهم عن الاتفاق المبرم بين العائلتين، موافقة وسخط ورفض وفرح، ردود أفعال متباينة صدرت في كل من المجلسين، لكن الموضوع قد حُسم، أعطى كبير كل عائلة كلمته ووعده، وهذا يعني أن ما وعد به سينفذ، وإن كان خطأً، الكبير لا يُخطئ وإن أخطأ.

قضوا ما تبقى من نهارهم، وأغلب ليلتهم في الحديث والمشاورات حتى انتصف الليل، نام من نام، ومن كان موعده في الحراسة بقي مستيقظًا متنبهًا؛ فرغم الهدنة الواقعة ورغم وجود قوات الشرطة في البلدة،

تقف متمركزة فاصلة بين العائلتين إلا إن هذا لم يمنعهم من الاحتراز لأي شيء قد يحدث أو غدر من العائلة الأخرى.

في اليوم التالي استيقظ الجميع مبكرًا من نوم كان متفرقًا، أاجتمع حمدان بجبل منفردين، أوصاه بأن يذهب إلى أحد البلاد المجاورة لهم مع اثنين من أولاد عمومتهم، ويأخذ معه ما يحتاج من أموال ليشتري بها سلاح وذخيرة؛ فحتى وإن كان لا يضمر شرًّا، ولا ينوي على ثأر، فهذا لا يمنع التجهز للأسوأ إن حدث خاصة بعد أن أخذت الشرطة أغلب أسلحتهم إلا المرخصة أثناء حملات التفتيش والمداهمات لبيوتهم والأسلحة المرخصة قليلة لا تفي بالغرض، وافق جبل على ما قاله حمدان وتحمس له، راح ينفذ سريعا، أرسل في طلب حسن وأحمد أولاد عمه، أخبرهم بما ينتوي فعله، وسألهم عن أفضل تجار الأسلحة، راحا يتشاوران ويستعرضان أسماء تجار السلاح المشهورين والأكثر ثقة.

أخبره أحمد أن أي منهم لن يستطيع العبث معهم أو خداعهم، لكن الأهم من هو الأسرع في تجهيز مرادهم، وما يطلبونه منه، ومن لديه بضاعة جاهزة، وقع اختيارهم على أحد التجار يعيش في منطقة جبلية

نائية، استحسن جبل الفكرة، كان ينتوي ألا يعود بالأسلحة إلى القرية خوفًا من مداهمات الشرطة، أضمر في نفسه خطة صرح بها بعد ذلك لمرافقيه وهي أن يخزن الأسلحة في مخزنهم القديم على حدود القرية الجنوبية المحفور في باطن الأرض، مكان سري سيكون معلوم لثلاثتهم فقط.

على الجانب الآخر أمر عمران ولده طه بنفس ما أمر به حمدان جبل، وكأنهم على اتفاق مسبق بذلك، وكأنهم يتخاطرون عقليًّا، أسهل شيء لدى هؤلاء القوم هو القتل إذا توفر لهم الدافع، وإن كان واهٍ.

اقتربت الشمس على المغيب، على طرف القرية الجنوبي توقفت شاحنة نقل كبيرة نزل منها جبل وأحمد وحسن، على طرفها الشمالي سيارة مشابهة توقفت هبط منها طه وراضي وخلف، كان راضي وخلف أولاد عم طه، راضي أخو وهدان، كان لكلٍّ منهما مخزن سري في باطن الأرض، أحدهما على حدود القرية الجنوبية والآخر الشمالية، الأماكن الأقرب لمنازلهما.

تلفت جبل عن يمينه فلم يجد أحدًا قادم ....

تلفت طه عن يساره فلم يجد أحدًا هو الآخر....

obeikan.com

أشارا إلى الواقفين بجوار الشاحنات، أنزل جبل من الشاحنة ثلاثين بندقية آلية، خمسة عشر بندقية خرطوش، أربعة صناديق ذخيرة في كل منهم ألف طلقة، وصندوقًا منفردًا يحتوي على ستة شرائط ذخيرة لمدفع جرينوف، وأنزل مدفعين جرينوف.

أنزل طه أربعين بندقية آلية، عشرين طبنجة عيار ٩ ملي، ستة صناديق صغيرة بها ذخيرة لتلك الأسلحة وأنزل بعناية صندوقان متماثلان في الحجم أحدهما يحتوي على سلاح أر بي جي، والآخر على أربعة دانات مضادة للدبابات كذخيرة له.

كنت أرى يا مولاي إبليس المعظم ما اشتراه الاثنان بعين العجب والدهشة لعلمي بقوة تلك الأسلحة، هذه أسلحة تكفي لشن حرب صغيرة بين دولتين، وليست معركة ثأر أهلية، كانوا كمن جنوا يا مولاي، كأنهم مُسوا من أعتى الشياطين فجرًا وشرًا، ولكن الشياطين لا تفعل ذلك، حتى أنا كشيطان تعجبت منهم ومما يجهزونه، لوهلة شعرت بخوفٍ غريبٍ منهم، توهمت أن أسلحتهم ستطال جنسي، تخيلت أن شر هؤلاء البشر قد يطال الشياطين يومًا، نفضت أوهامي، شكرت الأقدار أننا جن مخفيين عنهم، وإلا لكنا الآن في عداد الكائنات المنقرضة

بسببهم.

انتهوا يا مولاي من تخزين أسلحتهم، وراحوا يخفون أي أثر لهم، أو لشاحناتهم في المكان ثم عادوا إلى بيوتهم هادئين مطمئنين كأنهم لم يفعلوا شيئًا خطيرًا أو أمرًا جللاً، يملكون قوة وصلف عجيبين، أبلغ جبل وطه حمدان وعمران بما حدث، وما اشتروا وما فعلوا ببضاعتهم؛ فلاقوا الاستحسان!!

في المساء اجتمعت العائلتين، كلًا في ديوانه يرتبون ويخططون لما سيحدث غدًا في الجلسة المنتظرة، يتفقون ويؤكدون على بعضهم البعض الحضور والاستعداد، فغدًا هو اليوم الموعود والمنتظر الذي سيترتب على أحداثه حياتهم القادمة كلها، جميع رجال العائلتين اتفقوا على الذهاب عدا بعض الشباب، تُركوا في البيوت للحراسة، ومدهم بالأسلحة في حالة نشوب معركة.

ذهب الجميع من ديوان حمدان عائدين وكذلك من ديوان عمران، أرسل عمران بعد أن بقي وحده إلى زبيدة لتجلس معه قليلاً ليطمئن عليها، جاءت تمشي متمهلة مرغمة على ذلك فلا تستطيع المشي، انسحبت الدماء من وجهها فأصبح كوجوه الموتى، نفرت عظام وجهها

من تحت جلدها، فأصبحت بارزة ظاهرة، عيناها ذابلتان من أثر بكاءٍ لا يتوقف إلا أثناء نوم مملوء بالكوابيس المفزعة، دخلت على عمران صامتة عيناها معلقة بالفراغ، ربت على كتفها:

-عاملة إية يا بتي دلوقتي؟ عايزك ترضي بقدر ربنا ده مكتوب وملناش يد فيه.

-وليه ربنا يكتبه علينا؟ ليه يحرق قلبي على جوزي، ويخليه يموت مقتول وجثته تاكلها الديابة؟ علي كان طيب، وبيحب ربنا، ميستاهلش اللي حصل فيه، ليه حصل معاه أكده، والقاتل عايش ومتهني بعمره وصحته، ليه يا عمي؟

-استغفري ربك يا بتي، أكيد له حكمه في اللي حُصل، بس أحنا مفهمينهاش.

-وليه ربنا يعمل حاجة فينا مش فاهمينها؟ أنا هتجنن على جوزي وقلبي محروق..

-استغفري ربك يا بتي وهدي نفسك شوية...

-أستغفر الله العظيم وأتوب إليه، بس أنا مش هاهدى إلا لما أشوف دم

obeikan.com

مهران بعيني وأتحنى بيه..

-لو جه أخر يوم في عمري مش هسيبه يوخلص إلا ودم مهران مغرق الأرض وجتته متقطعه ألف حتة...

-ويبقى هو ده عدل ربنا يا عمي اللي أنا منتظراه....

-الأمل في الله كبير يا بتي...

قضى عمران ساعة من ليلته يواسي زبيدة المكلومة حتى هدأت قليلاً أو هكذا خُيل له، عادت هي إلى مضجعها، فلقد كانت على موعد مع كابوسها اليومي الذي ترى فيه نفسها مع زوجها المقتول في حديقة غناء خضراء متفتحة الأزهار عطرة، يحتضنها عليّ ورأسها على كتفه، برهة قصيرة وترفع رأسها مبتسمة له، ما أن ترفع رأسها حتى ترى رأسه تنفجر وتتطاير العظام والدماء تغطي وجهها، تصرخ، تتقافز في مكانها في هلع، تمسح الدماء، تنظر إلى زوجها، ترى جسده مازال واقفًا لكنه بلا رأس، ومن خلال مكان الرأس الذي كان... ترى وجه مهران مبتسما بشماتة، تستيقظ صارخة، تهدأ، تبكي، ثم تعود للنوم ثانية.

قضى الجميع ليلته بين نائم وساهر وحارس وقلق وخائف حتى الصباح.

في الصباح استيقظ الجميع متأهبًا، كان موعدهم في ديوان الشيخ ربيع في الثانية عشر ظهرًا، القرية جميعها في الشوارع بين منتظر ومستعد ومتفرج، قوات الشرطة لا تتوقف ولا تهدأ؛ تجوب الشوارع والطرقات متفقدة للأمن العام باستمرار، الجنود على أهبة الاستعداد، تم نقل مكان تمركزهم من وسط القرية إلى أمام ديوان الشيخ ربيع.

في الحادية عشر والنصف وصل العقيد حسام بسيارته، تحيط به من كل الاتجاهات ستة من سيارات الشرطة، يُرافقه النقيب مصطفى، والرائد علاء في كامل عدتهم وأسلحتهم في رهبة أحاطت بمن حولهم من المواطنين، وثقة كبيرة دخلوا إلى الديوان.

كان الديوان عبارة عن غرفة كبيرة جدًا تسع ما يقارب مائة فرد، على جوانبها رصت أرائك للجلوس، وفي المنتصف وزعت ثلاث مناضد، في رأس الغرفة مكان كبير به أريكتين في شكل مختلف أكثر جمالاً، أمامهما منضدة من أجود أنواع الخشب مزينة بعناية، هذا موضع جلوس كبير المجلس، جلس حسام وضباطه وبجوارهم الشيخ ربيع.

يقع الديوان على طرف القرية الشرقي، في مشهد مهيب قوات الشرطة

تتمركز أمام الديوان في نقطة تتوسط طريق قدوم العائلتين، عن يمينهم جمع قادم، وعن يسارهم مثله، مئات من البشر قادمين، سائرين بتؤدة وثقة، الطرق ترابية، أقدامهم نثرت التراب جعلت الجو ضبابيا، يقود بعضهم عمران عن جانبه متأخرًا عنه بخطوه طه ومن ورائهم صفوف من الرجال، يقود الآخريين حمدان بجواره جبل ومن ورائهم الكثير، رجال كُثُر بعضهم في سن الشباب والآخر شيوخ، الجميع متأهب للأسوأ، عيونهم تلمع، غل دفين وبغض يستعر في القلوب، في مشهد درامي وقف الجمعان، ما إن اقتربا من بعضهما البعض، حتى عم الصمت لثوانٍ إلا من حديث خفي انتقل من عين عمران إلى عين حمدان، تحسس كلا منهما جيب جلبابه، كان الرائد علاء قد خرج من الديوان حين تم إبلاغه باقتراب العائلتين، وقف في المنتصف بينهما ورجاله خلفه، رأى توقفهم، توجس خيفة صرخ بأعلى صوته:

-!!!!!!!!استعد!!!

سمعه الجنود، جذبوا أجزاء أسلحهم الآلية في سرعة مستعدين، في آن واحد نظر إليه عمران وحمدان نظرة سخرية، ثم نظروا إلى الجموع من خلفهم كأنهم يودون إخباره أنهم لا يخافونه، توجه عمران وطه إلى

الداخل ومعهم نفر من عائلتهم، وكذا فعل حمدان وجبل، داخل الديوان جلسوا متقابلين وفي المنتصف من عند رأس الجمع جلس ربيع وحسام ومصطفى.

كما جرت العادة بدأت الجلسة بقراءة القرآن، قرأ الشيخ ربيع بصوته العذب جزءًا من سورة يس، ثم راح يلقي خطبة قصيرة عن حُرمة الدماء وعظمها عند الله، وعما أعده الله لمن غفر وسامح، حاول ترغيب المتناحرين وتهدئتهم، ولقد نجح بعض الشيء في ذلك، دعا الجميع للصلاة على النبي محمد وتوحيد الله وقراءة الفاتحة، فعل الجميع ما طلب، ثم عم الصمت...

استلم زمام الحديث العقيد حسام:

-دلوقتي يا جماعة أنا شايف أن كلنا عارفين اللي حصل، فملوش لزوم أننا نحكيه تاني، كل واحد فيكم يقول طلباته إيه.

كان حسام يلعب دورًا عظيمًا وحكيمًا، حاول قدر المستطاع تجنب الصدام المحتمل إذا حكى كل منهم حكايته فقال ما قال، نظر الكل إليه في صمت، قطعه صوت حمدان...

-ما دمنا معنحكوش حاجة يبقى أحنا جايين نسمع حكم، وأحنا رضينا بحكم الشيخ ربيع فيقول حكمه ونسمعه...

نظر ربيع إلى عمران، سأله عن رأيه في ما قيل؟

-ما دمنا جينا يبقى رضينا بحكمك يا ربيع.... (قال عمران)

طأطأ الشيخ ربيع مفكرًا، برهة قليلة، رفع رأسه إلى حسام، همس إليه بحديث في أذنه، رد حسام همسه بهمس آخر، كانا يتشاوران في ما بينهما على الحكم حتى استقرا، أشار حسام إلى ربيع للنطق بما توصلا إليه.

-بسم الله والحمد لله، اللهم بحق سر قدسية اسمك العظيم الأعظم، وفقنا إلى ما تحبه وترضاه، صلوا على النبي يا جماعة، العمرانية عندهم قتيل، والحمدانية عندهم قتيل، أكده تبقى راس براس، الحمدانيّة هما اللي ابتدوا؛ فيقع عليهم دية، والديه زي ما انتوا عارفين بتكون بقيمة سعر فدان الطين في الوقت اللي احنا فيه يعني ٥٠٠ ألف جنيه، قتيل العمرانيا كلت جتته الديابه فيقع نص ديه تاني على الحمدانية يبقى عليهم ديه ونص ٧٥٠ ألف جنيه، العمرانية قتلوا عيل أصغير فيقع عليهم نص ديه، يبقى الحكم النهائي ديه ونص على

obeikan.com

الحمدانية، ونص ديه على العمرانيه، نص ديه يروح قصاد نص ديه يبقى الحمدانيه عليهم ديه كاملة للعمرانية.

هاج الجمع وماج، وتعالت الأصوات، وتداخلت بين موافق ومعارض ومناقش، وصل الصوت إلى الخارج، سمعه المنتظرين من العائلتين وسمعه الجنود، تأهب الجميع وشهر الجنود أسلحتهم، إن لم يتفق من بالداخل ستنشب مذبحة أهلية، صرخ ربيع محاولاً إسكاتهم:

-الحكم نهائي! واللي مش هيلتزم بيه بيعاديني أنا وعيلتي كلاتها، وبيعادي الحكومة.

في هذه اللحظة يا مولاي أصابني اليأس، هل ستنتهي الفتنة على ذلك؟ رُحت أوسوس لعمران تارة، وأذكره بابنه المقتول، ولحمدان تارة وأذكره بابن أخيه الصغير، محاولاً أن أجعل أحدهما يعترض على الحكم لكني فشلت في ذلك.

وافق الطرفان على الحكم، سبق عمران حمدان وأعلن موافقته ورضاءه ثم تبعه حمدان، كاد طه أن يُجن، وحزن جبل على المال الذي سُيدفع، لكن كلمة الكبار صكّ لا رد له، من عادات الجلسات العرفية أن يكون كل شيء جاهز، الرجال، السلاح، وكذلك الأموال، أخرج جبل جوالاً كبيرًا

كان قد وضعه أسفل قدميه يحتوي على ثماني مائة ألف جنيه، راح بمساعدة حسن يحصي الأموال حتى قام بإحصاء نصف مليون جنيه، سلم الأموال لحمدان الذي سلمها لربيع ليسلمها بدوره إلى عمران، أمسك عمران الأموال، أحصى منها مائة ألف جنيه أعادها إلى ربيع قائلاً

-تركت من حقي ١٠٠ ألف كرامة لبوابة الديوان اللي اتفتحت لينا...

حاول ربيع إعادتها لحمدان فرفض...

-خليها أمانة في رقبتك، خرجها للفقرا وثوابها يعم على الكل...

دعاهم ربيع لقراءة الفاتحة، والقسم على كتاب الله بأن لا يخلفوا ما اتفقوا عليه، قرءوا ثم أقسموا، فُض المجلس على ذلك، خرج المجلس إلى الشارع، أخبروا المتجمهرين بما حدث فراحوا يباركون لبعضهم البعض، عاد كل شخص إلى منزله وتفرقت الجموع، أمر حسام مصطفى وعلاء بالعودة إلى التمركز في مكانهم الأول تحسبًا لأي طارئ، عاد حمدان إلى منزله، ومعه بعض من أهله وكذا عمران، على باب منزل عمران وقفت زبيده التي عرفت ما حدث منتظرة عمران، وصل، توجهت ناحيته باكية:

obeikan.com

-هو ده اللي اتفقنا عليه عشية يا عمي؟

ربت على كتفها مبتسمًا في شحوب، همس في أذنيها:

-أوعاكِ يا بتي تصدقي كل اللي عتسمعيه، مش كل اللي بيتقال حقيقة، ولا كل الحقيقة ينفع تتقال، النوايا معيعرفهاش إلا ربنا وصاحبها بس.

ابتسم لها مرة أخرى، تركها لدموعها، وعدم فهمها ودلف إلى المنزل.

obeikan.com

obeikan.com

(٢٣)

النهاية

في اليوم الذي تلي الصلح صباحًا توجه حمدان إلى مركز الشرطة لمقابلة العقيد حسام رئيس المباحث، صعد إلى مكتبه بالدور الثاني، قابله حسام بحفاوة، فلقد انتهى بنهاية الثأر عهد السخط عليهم، تسامران قليلاً وتبادلا عبارات المجاملة، سأل حسام حمدان عن سبب الزيارة، أخبره أنه يريد استلام جثة شديد المحفوظة بثلاجة مشرحة المستشفى العام حتى يقومون بدفنها، أخبره حسام أن على النيابة أن تنهي التحقيقات أولاً حتى تصرح بدفن الجثة.

-مش خلاص وهدان أعترف يا بيه، وبأكده القضية تبقى خولصت..

-أعترف فعلاً يا حاج الموضوع وقت بس...

-طيب ومهران يا بيه؟

obeikan.com

-بردوه مسألة وقت، مفيش دليل ضده، وأعتقد النيابة هتفرج عنه بكرة في التحقيق.

دخل توفيق الساعي، وضع كوبان من الشاي كان قد طلبهما حسام ثم خرج، أنهى حمدان حديثه ثم أستأذن العقيد حسام في الاطمئنان على مهران فأرسل في طلبه، صافحه حمدان وطمأنه وأخبره بما قاله له حسام ثم خرج مغادرًا المركز.

*****

اقتربت شمس النهار على المغيب، عمران جالس على "المصطبة" أمام منزله، ينتظر أذان المغرب كي يذهب إلى الصلاة، ثم يعود لتناول طعام العشاء كما جرت العادة، يأكلون بعد المغرب ثم ينتظرون صلاة العشاء، وبعد تأديتها يخلدون للنوم، هذا هو الحال والمعتاد إلا في الظروف القصوى، بينما هو جالس إذ بتوفيق ساعي مكتب رئيس المباحث يأتي إليه، صافحه ثم قبل يده، فلقد كان عمران ابن عم والدته أي أنه بمثابة خال له، جلس توفيق بجواره، قص عليه ما سمعه من حديث حمدان والعقيد حسام، لمعت عينا عمران بالفرحة:

-مهران هيخرج بكرة؟

obeikan.com

-أيوه يا خال! وهيستلموا جتت ولدهم كمان علشان يدفنوه..

-حلو قوي أكده، روح أنت دلوقيت يا توفيق...

ذهب توفيق، ألقى عمران فكرة الصلاة خارج عقله، دخل إلى منزله مرسلاً في طلب طه الذي جاءه مسرعًا، ألقى على مسامعه ما قاله له توفيق منذ قليل، لم يفهم طه شيئًا، سأل والده عما يقصد.

-مالك يا وِلد أتخبلت ولا إيه؟ بقولك مهران طالع بكرة وهيجي يدفن ولده القتيل، تار أخوك هناخده، ودم مهران هيغرق تربة ولده...

-تار أيه يا بوي؟ أحنا قرينا فاتحة لله، وحلفنا على كتابه، هنخون العهد وننكث اليمين؟

-واه عليك! يمين إيه اللي عتتكلم فيه ده؟ دم أخوك أهم من ألف يمين، هنكفر عنه بعدين، نصوم تلت أيام ونخرج كفارة، أما دم أخوك ميتفاتش...

-أمال ليه رضيت بالحكم؟

-علشان الكل يأمن، ومهران يرجع وميهروبش، والحكومة تسيبنا في حالنا، حكمولنا بدية وخدناها، خلاص نقتلوا مهران وندفعوا ديه.

openkan.com

-اللي تشوفه يا أبوي، عايزني أعمل أيه؟

-خد أتنين من ولاد أعمامك، وهاتوا السلاح وجهز الرجالة، وأوعى حد غريب يعرف حاجة، وخزِّن السلاح في الزريبة.

-حاضر يا بوي!

ذهب طه مسرعًا بلا تهاود، وبدون تفكير لينفذ ما أمره به والده، كان يستعر بداخله صراع كبير، رغبته في قتل قاتل أخيه، ورغبته في الحفاظ على القسم، لكن في النهاية وفي وقت قصير انتصرت رغبة الثأر، وإراقة الدم.

*****

بعد صلاة العشاء...

أرسل حمدان حسن ليجهز مكانًا لنصب سرادق العزاء، ويعد العدة لذلك، جمع رجال العائلة، أوصاهم جميعًا بالحضور غدًا بعد أن أخبرهم بما سمعه من العقيد حسام، شدد عليهم بالحذر فمن الممكن أن تقلب رؤية مهران في الجنازة كل الموازين رأسًا على عقب وتعيد فتح ما كان قد أغلق.

obeikan.com

أوصى جبل بأن يجلب الأسلحة احترازًا لما قد يحدث، وأن لا يبيت ليلته إلا والأسلحة وذخائرها بالدار، ومدافع الجرينوف منصوبة فوق سطح المنزل، نفذ جبل ما طُلب منه على أكمل وجه بمساعدة أولاد عمومته، نصب مدفعًا فوق سطح منزله، والآخر فوق منزل حمدان، خزن باقي الأسلحة في منزل مهران المغلق منذ عودتهم، فزوجته وأولاده يعيشون في منزل حمدان، فلا يجوز ترك النساء وحدهم حتى وإن كانوا محل ثقة.

*****

كنت أبي الأكبر والشيطان الأعظم أرى ما يحدث، أشاهد وأراقب ولا أتدخل فلم يعد لي دور في كل هذا، هم يتكفلون بكل شيء.

*****

جاءت الساعة الثانية صباحًا وكان كل شيء قد تم، نفذ كلٌّ من جبل وطه ما طُلب منهما، تجهز الرجال وجهزت الأسلحة لا ينقص المشهد إلا القتلى.

*****

الساعة العاشرة مساءً...

هاتف حسام مصطفى، أمره بالتيقظ طيلة الليل، وأن يكون على أهبة الاستعداد غدًا أثناء تشييع الجنازة، وأن ينقل تلك التعليمات أيضًا إلى الرائد علاء:

-لو بكره فات على خير، وإن شاء الله هيعدي على خير، يبقى التار ده خلص للأبد.

-ربنا يسترها معاليك، متقلقش احنا جاهزين..

-ربنا معاكم يا ولاد ويسترها عليكم

*****

أشرقت الشمس بنور صافٍ هادئ، بدأ يوم جديد ككل الأيام التي مرت مشابه لما هو آت، تشرق الشمس وتغرد العصافير على أشجارها، ترتفع حرارة الشمس رويدًا رويدًا حتى تبلغ أشدها ثم تختفي كما بدأت منسحبة بهدوء حتى تغرب، روتين كوني لا يختلف إلا نادرًا، ما يختلف ويتغير هو أفعال من يعاصرون ذلك الروتين، أفعالهم وحدها هي من تحدد جودة يومهم أو سوءه، سيبقى البشر إلى الأبد أسرى أفعالهم

openkan.com

عبيد اختياراتهم.

*****

الثامنة صباحًا...

استيقظ كل آل حمدان من بعد صلاة الفجر لكن لم يخرجوا من منازلهم إلا في الثامنة متوجهين إلى مركز الشرطة، خرج حمدان وجبل وأحمد وعشرة رجال آخرين، توافدت أفواج النساء إلى ديوان حمدان يستعدن لاستقبال جثمان شديد بالصراخ والعويل، منهن من تصرخ حزنًا، ومن تصرخ مجاملة ومن تصرخ تعودًا، ومنهن من تذهب لتتذكر أمواتها وتبكيهم وتحكي عنهم لمن جاورها في المجلس من النسوة، توجه الحمدانية إلى مركز الشرطة، يتبعهم متلصصٌ من بعيد؛ توفيق، ذهب حمدان وحده إلى المشرحة بعد أن أخذ تصريح النيابة بدفن الجثة، أنهى الإجراءات المطلوبة، ثم عاد إلى المركز مرة أخرى.

*****

العاشرة والنصف صباحًا....

أخلت النيابة سبيل مهران لعدم توافر الأدلة بلا ضمانات، صافح

obeikan.com

مهران حين خرج كل من حضر بحرارة وفرحة جمة، للحرية رونقها الذي لا يعرفه إلا من فقدها ولو مؤقتًا، توجه الكل إلى المشرحة، تم تجهيز الجثمان بتغسيله وتكفينه بمعرفة العاملين بالمشرحة، وضعوا الجثمان في النعش، حملوه حتى سيارة نقل الموتى وانطلقوا إلى القرية عائدين.

*****

-ألو، أيوه يا خال! أتسلموا جتت الوِلد الصغير..... أيوه أيوه مهران معاهم..... لع خلاص ركبوا العربية وخرجوا من المستشفى..... أنا جاي وراهم على طول.

*****

-أيوه يا مصطفى الحمدانية استلموا جثة أبنهم دلوقتي علشان يدفنوه..... آه أبعت بوكس وكام أمين شرطة وراهم، ويقفوا معاهم في المدافن... مع السلامة.

*****

-أيوه يا حسن! أحنا جايين في الطريق بلغ الرجالة.... لع هنصلي عليه

الأول في الجامع الصغير جنب الديوان.... خليهم يجهزوا بالسلاح بس محدش يظهر حاجة.

*****

-طه ....طه.... أنت يا وِلد!

-نعم يا بوي...

-جهز الرجالة ساعة المعاد جت، ساعة الحق، الحمدانية في الطريق...

-حاضر يا بوي!

*****

عرفت زبيدة بقرب الثأر، اتشحت بسوادها، أخرجت مسدسًا من دولابها، وضعته بين طيات ملابسها، ثم هبطت لتقف بجوار عمران أمام باب المنزل.

*****

قوات الشرطة على أهبة الاستعداد، مصطفى مطمئنًّا، وعلاء قلقًا، لا يعرف هذا سبب اطمئنانه، ولا يفطن الآخر إلى مصدر قلقه، وقفت

obeikan.com

قوات الشرطة متمركزة بين طريق يفصل بين منازل آل عمران وآل حمدان، شاحنتان لنقل الجنود ومدرعة أمن مركزي وثلاثة سيارات شرطة "بوكس" يصطفون خلف بعضهم البعض كحاجز بين العائلتين، ثلاثين جندي مجند، وأربع ضباط وعشر أمناء شرطة، خلفهم منازل آل عمران متراصة في عشوائية، أمامهم منازل آل حمدان يتجمهر أمامها عشرات من البشر في انتظار وصول الجثمان لتأدية واجب العزاء، منهم من هم من العائلة، ومنهم من هم من خارجها ولكنهم أتوا لأداء الواجب، عن يمينهم ترعة صغيرة تمتد إلى نهاية البصر، عن يسارهم طريق الدخول إلى القرية، أو الخروج منها، ظهرت في الأفق ثلاثة سيارات واحدة منهم سيارة نقل الموتى وسيارتين أخرتين ربع نقل محملتين بالبشر، الجثمان يقترب والناس في الانتظار.

وصلت السيارات، ازدحم الناس حول السيارة التي تحتوي على النعش؛ الكل يساهم في إخراجه منها وحمله، حمله أربع رجال، توجهوا به ناحية المسجد، الكل يتدافع منهم من يهرول ليتوضأ سريعًا حتى يستطيع اللحاق بصلاة الجنازة، مهمة هي صلاة الجنازة ثوابها قيراط في الجنة، ومنهم من يتدافع ليدخل أولاً كي يحجز مكانًا

يقف فيه للصلاة، استقر النعش في اتجاه القبلة، واصطف الناس في صفوف شبه متلاصقة خلفه، تقدم مهران ليؤم المصلين، الشيخ ربيع حاضرٌ للصلاة، توجه مواجهًا المصلين.

-صلاة الجنازة أربع تكبيرات بدون ركوع أو سجود، بعد التكبيرة الأولى نقرأ الفاتحة وبعد الثانية نصلي على النبي، وبعد الثالثة ندعو للمتوفى، وبعد الأخيرة ندعو لعموم موتى المسلمين.

وجه مهران وجهه إلى القبلة

-الله أكبر

*****

-أمين نور .... يا أمين نور!

-نعم يا مصطفى باشا!

-خد بوكس، وأربع أمناء شرطة، وجهزوا نفسكم، تطلعوا ورا الجنازة لحد المدافن.

-تمام يا فندم!

obeikan.com

-أيوه يا خال عمران دخلوا الجامع يصلوا الجنازة

-تمام يا توفيق! أقفل أنت وأمشي من عيندك

-يلا يا طه ربنا معانا!

-والحكومة يا بوي؟

-اللي يقف بينا وبين مهران دمه حلال!

-هتبقى حرب أكده!

-مش مهم المهم دم مهران..

*****

تسللت زبيده من المنزل دون أن يلاحظها أحد، سارت على الناحية الأخرى من الترعة مستترة بالحقول مُتوارية عن الأنظار.

*****

انتهت صلاة الجنازة، خرج المعزيين، مهران أصر على حمل النعش مع الآخرين، خرج المصلون وخرج بعدهم النعش محمولاً على أعناق أربعة رجال في صدارتهم مهران وبجواره جبل وحمدان سائر أمامهم،

obeikan.com

النساء يقفْن على أبواب المنازل يصرخْن، يولولْن ويشيعْن الجثمان، أم شديد قلبها مفطور تصرخ بفؤادٍ محترق.

أكثر من أربعين رجلاً وشابًّا من آل عمران يخرجون من ديارهم منطلقين من أمام ديوان عمران حاملين أسلحتهم على رأسهم، عمران متكئًا على عصاه بلا سلاح، الكبير يعطي الأوامر فقط، طه ممسكًا ببندقية آلية معلقًا على كتفه حقيبة بها ذخيرة للبندقية، بجواره راضي يحمل أر بي جي، وخلفه شابان صغيران يمسك كل منهما بداناتين كذخيرة لسلاح راضي، بخطى ثابتة وبأس شديد يسيرون، اقتربوا من قوات الشرطة المتمركزة، رآهم علاء، نبَّه مصطفى الذي نظر خلفه، أستل مسدسه

-أقف مكانك أنت وهو..

الجنود جميعهم استعدوا إثر صوت مصطفى، نظروا خلفهم، شهروا أسلحتهم في وجوه آل عمران

-إبعد تسلم يا موصطفى بيه، ملناش تار معاكم بس لو وقفتوا بينا وبين تارنا، دمكم يحل لينا..... (قال عمران)

-أرجعوا وإلا هاضرب في المليان!

-بخاطرك يا باشا!

قبل جملة عمران بأقل من دقيقة حسن يهرول ناحية حمدان

-العمرانية جايين بالسلاح نواحينا.

-اركب السطح بسرعة يا وِلد، روح يا جبل على المدفع التاني...

ترك جبل النعش الذي سقط وتدحرج جثمان شديد منه، هرول الجميع في كل مكان منهم من ذهب ليحضر سلاحه، ومنهم من أخرج سلاحه، وراح يتمركز في مكان جيد لإطلاق الرصاص، أما الغرباء المعزيين فهرولوا فارين هاربين بأعمارهم، أُشهر السلاح، ارتفعت أصوات صراخ النساء هذه المرة يصرخون هلعًا ورعبًا:

*****

-بخاطرك يا باشا!

جذب مصطفى أجزاء سلاحه، هرول علاء إلى المدرعة، ركبها، أمر السائق بالتوجه ناحية العمرانية، قرر إطلاق النار عليهم من داخل المدرعة.

أمسك حسن مدفع جرينوف، بدون سابق إنذار أو انتظار فتح النار،

obeikan.com

راح يمطر القوات بالرصاص، احتموا بسياراتهم، مساكين هم لا ناقة لهم ولا جمل فيما يحدث إلا واجبهم الذين أقسموا على تأديته على أكمل وجه، بين شقي الرحى أصبحوا. رصاص آل حمدان على حين غرة انطلق من أمامهم، وجيش آل عمران الصغير مدجج بالسلاح من خلفهم، أطلقوا النيران بدورهم ناحية الحمدانية، سقطت جثة... الثانية... انفجرت قدم ثالث، فسقط صاحبها أرضًا، صوب جندي ناحية حائط جعله كالمصفاة من كثرة ثقوب أحدثتها رصاصته به.

تحرك علاء بالمدرعة، جلس راضي أرضًا على ركبة واحدة، ألقم سلاحه دانة، وجهها إلى المدرعة المتجهة نحوهم، اتسعت عينا علاء بداخل المدرعة، حاول السائق أن يبتعد، انطلقت الدانة، أصابت منتصف صدر المدرعة، انفجرت مشتعلة، في الحال تطايرت أشلائها، كل من فيها مات، أطلق الجنود النار مشتتين، بعضهم يطلق للخلف والآخر للأمام، أصيب مصطفى في قدمه بطلقة اخترقت فخذه من مدفع الجرينوف خرجت من الناحية الأخرى، سقط أرضًا وفي يده مسدسه.

استشهد عشرين جنديًّا، هرول الآخرين مبتعدين خائفين، شباب

صغير هم مجرد جنود يؤدون خدمتهم العسكرية لا يريدون الموت، مدافع الجرينوف تنطلق، تحصد الأرواح، دانة أخرى من راضي أصابت سطح منزل حمدان فجرته وقتلت جبل، هرول العمرانية ناحية الحمدانية مستترين خلف سيارات الشرطة، وفعل الحمدانية ذلك مستترين بحوائط منازلهم، محتمين بمدفع الجرينوف الآخر، زحف مصطفى على الأرض مصابًا ودمائه تسيل.

الأعيرة النارية في كل مكان تنطلق من كل حدبٍ وصوبٍ، القتلى يسقطون كالذباب، مهران يختبئ في حفرة بمحاذاة الترعة، الرجال لا يتوقفون، والذخيرة لا تنفد، مات جبل وقُتل حسن، استشهد ضابطي شرطة، قُتلت زوجة مهران وابنة حمدان في قصف سطح المنزل، مات منصور، وانفجرت رأس مرزوق، طلقة اخترقت عين طه ومات أحمد، أصاب الجرينوف راضي فقتله على الفور، انفجرت إحدى سيارات الشرطة فقُتل محمد وقُتل سيد وأصيب سعيد، قُتل ماهر وانفجر كبد خلف.

صرخ عمران في الرجال، جثة طه أمام عينه أفقدته ما تبقى من صوابه، عنَّفهم، دفعهم إلى البحث عن مهران، مهران مختبئ يُطلق

النار من مسدسه، بارع في التصويب طلقته بقتيل، زحف مصطفى حتى وصل إلى جهاز اللاسلكي الذي كان قد سقط منه، طلب الدعم الفوري وأبلغهم بما يحدث.

الدماء تنزف من الجميع والرؤية ضبابية بسبب التراب المتطاير، الدماء صبغت التراب فاختلطت به، فأصبحت الرؤية أفضل بعد أن أصبح التراب طينًا معجونًا بدماء وليس بالماء، الحمرة تسيطر والجثث المسجية تتزايد، زاد القتل، ثُقب عنق عادل، وفُلقت رأس ياسين، وتطايرت أشلاء جمجمة مجاهد على وجه عبد الرحمن المصاب في فخذه، الجرحى يصرخون ولا مسعف لهم.

استند مصطفى إلى عجلة أحد السيارات، جلس نصف جلسة، رأى عمران من بعيد واقفًا، استل مسدسه، طلقة محكمة منه اخترقت منتصف جبهته أردته قتيلاً على الفور، أصوات صفارات سيارات الشرطة، والإسعاف قادمة من بعيد، تقترب، سمعها الجميع، من بقى حيًا لاذ بالفرار بعد أن قُتل أغلب من كانوا واقفين منذ قليل، خرج مهران من مخبأه مهرولاً، قفز في الترعة، سبح خلالها، عبر إلى الجهة الأخرى، وسلاحه في يده، خرج من الترعة راح يهرول بداخل

obeikan.com

الحقول مبتعدًا، لم يتغير حتى بموت ولده... جبانٌ وبقى كذلك، شرير وزاد شره لم ينقص، راح يهرول، تعثر أثناء هروبه، سقط على وجهه، قام من سقطته مسرعًا ليجد زبيده في وجهة وسلاحها مشهرٌ في وجهه.....

-رايح على فين يا مهران؟ فاكر نفسك عتهرب بعد اللي عملته؟ البلد كلها غرقانه في بحر دم بسبب وساختك ونجاستك وأنت عايز تُهرب؟ موتك على يدي وهشفي غليلي بيدي.

اتسعت عيناها فجأة وتراخت أصابعها الممسكة بسلاحها، أطلق مهران عليها النار، أصاب قلبها مباشرة:

-لو عايزة تقتلي أقتلي على طول من غير حديت يا حبة القلب.

سقطت زبيدة قتيلة في الحال، مال مهران بجذعه عليها، قبَّل شفاهها، ثم هرول مبتعدًا عن البلدة متجهًا إلى الجبل.

وصلت سيارات الشرطة راح جنودها يمشطون القرية، كل شبر وكل شارع بها، يطاردون من تبقى من العائلتين، نقلت سيارات الإسعاف الجرحى إلى المستشفى العام ومنهم مصطفى الذي نجا فيما بعد.

*****

obeikan.com

بعد هذه الحادثة يا مولاي حاصرت الشرطة القرية بقبضة محكمة من فولاذ، تم القبض على كل من تبقى من العائلتين ومحاكمته، ظلت القوات متمركزة في القرية، حتى الساعة التي أقف فيها بين يديك الآن أحكي ما جرى هناك، تلك حكايتي التي نلت العفو من قداسة مجلس الشياطين الأعلى بسببها.

-وأين ذهب مهران؟.....سأل إبليس

-سافر إلى خارج البلاد بعد المذبحة بأسبوع متسللًا عبر الحدود ويحيا الآن في أحد البلاد العربية حياة هادئة جديدة كليًا.

-إني أرى بأم عيني أفول عصر الشياطين على يد البشر، أدرك بعد ما قصصت على قداستي أن الشياطين أصبحت في حال يُرثى لها، أراني وإياكم معشر الشياطين.. آلهة الشر، على شفا أن نُصبح عاطلين عن العمل بعد أن استلم البشر زمام إدارة الشر والتخطيط له، أرى بعين المستقبل القريب جثث الشياطين المتراكمة فوق بعضها البعض، بعد أن ماتت كمدًا وحسرة، جثث قتلها الملل والمكوث بلا عمل، وأخرى قتلها الألم والحسرة على مجدٍ دام لقرون، ولكن أنهاه البشر الآن وأعلنوا موتنا....

موت الشيطان..... يا كبير شياطين الجنوب ما قصصته أراه غير كافٍ لكي يعفو المجلس عنك، تم الرجوع عن قرار العفو، وعليك العودة إلى محبسك ثانية، لتتم فترة عقوبتك..... انتهت الجلسة..

obeikan.com

الكاتب في سطور

عندما حاولنا أن نعرض الكاتب في سطور وجدناه ليس سويًّا، ليس طبيعيًّا، لم نستطع وصفه، كل ما نعرفه أنه يكتب، وأنه في هذه الرواية قتل الشيطان، وفي كتاب آخر قال إنه كان من أهل الجن، وعندما بدأ مشواره الكتابي كَتَبَ "شعوذات فكرية"، وأقام اجتماعًا للثعابين، حتى أننا سمعنا ذات يوم إشاعة تقول إنه ليس بشريًّا، وليس جنيًّا، ولا يعرف ما هو، فإن استطعت أن تصل لمعلومات عنه، فأعرف أنك قد وصلت إلى ما لم نستطع الوصول إليه.

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com